ابن شهيد الاندلسي

رسالة
التوابع والزوابع

صححها ، وحقق ما فيها ، وشرحها ، وبوبها ،
وصدرها بدراسة تاريخية ادبية

بطرس البستاني

مكتبة صادر
بيروت

رسالة

التوابع والزوابع

ابن شهيد الأندلسي

رسالة
التوابع والزوابع

صححها، وحقق ما فيها، وشرحها، وبوبها،
وصدرها بدراسة تاريخية أدبية

بطرس البستاني

مكتبة صادر
بيروت

مطبعة المناهل : ٦٥ - ١٩٥١

الكتاب الاول

ابن شهيد
الأندلسي

حياته ، أدبه ، رسالة التوابع والزوابع

ابن شهيد

٣٨٢ – ٤٢٦ هـ (٩٩٢ – ١٠٣٤ م)

في الدولة العامرية

هو ابو عامر احمد بن ابي مروان عبد الملك بن مروان بن احمد بن عبد الملك من شُهَيْد ، ثم من أشجع وهم بطن من غطفان . ويتحدر من سلالة الوضاح بن رزاح الذي كان مع الضحّاك بن قيس الفِهري يوم مرج راهط. وكان جد ابيه احمد ابن عبد الملك وزير الخليفة الاموي الناصر عبد الرحمن الثالث، واول من تسمى بذي الوزارتين في الاندلس .

ولد ابو عامر بن شُهَيْد بقرطبة في خلافة هشام بن الحكم ابن عبد الرحمن الناصر ، والأمر يومئذ للحاجب محمد بن ابي عامر الذي حجر على الخليفة القاصر ، واستبد بالامر دونه ، وتلقب بالمنصور كما يتلقب الملوك . واثبت ابن بسام في الذخيرة رسالة لابن شهيد خاطب بها المؤتَمن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن محمد بن ابي عامر ، يذكر فيها ما للعامريين من الفضل عليه وعلى ابيه ، فنعلم منها ان المنصور استعمل والده على الجهة

الشرقية تسعة اعوام بتُدمير وبلنسية ، ولم يصرفه عنها حتى سئم العمل والتمس الإقالة ؛ فأقاله على رضاه . فشخص الى قرطبة، ومعه اربع مائة الف دينار ناضّة ، ومائة الف من ذهب آنية ، ووثائق خمس مائة زوج مكتسبة ، ومائتا نسمة من رقيق الصقلب منتقاة . فكتب اليه يعرض عليه ما جاءه به ، ويحكّمه فيه . فجاوبه يقول : « لو اردنا اخذ ما اعطيناك ، ما قدّمناك . ونحن نخاف ان تستصفي نفقتُك ما استفدتَه ، وتأتي على ما اجتلبتَه ، بارتفاع ثمن الطعام ، وانك لم تَرِدْ منه على ذخيرة . وقد صككنا لك بالفي مُدْيٍ بشطرين من قمح وشعير تستظهر بهما على زمانك ، فاقبضها من أهراء فلانة[1] لقربها من مكانك ، ان شاء الله . »

فهذا الرضى من المنصور كافٍ لان يطلعنا على منزلة ابي مروان عنده ، وما له من الحظوة والكرامة في دولته ، وعلى النعمة التي كان يتقلب كاتبنا في احضانها منذ طفولته . ونتبين في مكان آخر من الرسالة عناية الحاجب به ، وعطفه عليه ، اذ كان في الخامسة من سنيه . فقد جيء به اليه في يوم مطير ، وبين يديه تفاحة كبيرة ، ورآه ينظر اليها نظر من يشتهيها ، فأمره

---

[1] فلانة : كنى بها عن اسم قرية او بلدة .

بان يأخذ ويعض فيها ، فضاق فمه عن الاحاطة بجزء من اجزاء كرتها ، وصغرت كفه عن القبض الا بمخنق من مخانق انحائها ، فتناولها المنصور منه ، وجعل يقطع له بفمه ويطعمه . ثم دعا ولده عبد الرحمن الناصر ، فقال له : « احمله الى امك . » فأخذ بيده ، ومعه رجل يكنى ابا شاكر ، فامتنع الطفل عن السير من المطر ، فصاح بهما المنصور : « احملاه على اعناقكما. » فلفّا اعضادهما ، ووصلا اذرعهما باعناقهما ، واقلاه الى زوج الحاجب ، فأجلسته على سريرها ولاطفته ، ثم امرت له باربعة آلاف درهم : الف عنها ، وثلاثة آلاف عن بعلها . ويخبرنا ابن شهيد انه كان يأمل ان يوزعها على الخدمة والعمال من الصبيان وصبايا الجيران ، فصادره عليها ابوه ، ففرق منها على حاشيته ، واشار بحمل الباقي الى خزانته . فلما بلغ المنصور ذلك ، بعث اليه بخمس مائة دينار ، واقسم على ابيه بحياته الا يمنعه منها ، فتصرف فيها على هواه .

ويذكر لابنه عبد الملك المظفر يداً عليه وهو ابن ثماني سنوات ، والمظفر يومئذ وليّ للعهد ، لان المنصور توفي سنة ٣٩٢ ﻫ (١٠٠٢ م) وابو عامر بن شهيد في نحو العاشرة من عمره . وذلك ان والده ابا مروان زهد في الدنيا وتنسك ، ونظر الى الآخرة بعد ابلاله من مرض ألمّ به ، فأشاح بوجهه عن

الجاه والشهوات وهما ملء راحتيه . وبدا له ان يصدّ ولده عن مشارع الحياة العذبة ، فحلق له لمّته ، ونزع عنه ثيابه الحريرية ، والبسه مدارع الكتان ، وحمله على التقشف وشظف العيش . فضاق الصبي ذرعاً بخطة أكره عليها ، « وكانت افدح نازلة نزلت بصبوته ، واقلق حادثة سلبت رونق بهجته » على حد تعبيره . فذات يوم زارهم الوزير ابن مَسلمة يعود والده ، فسأله عن حاله ، فكان جوابه نشيجاً وعويلاً ؛ فلما رجع أخبر المظفر خبره ، فاستقدمه اليه ، وامر به فألبس ثياب الحرير ، وضمخ بالطيب ، وحمله على فرس كريم ، واتبع ذلك الف دينار في طبق ، وعقد له على الشرطة ، لكي لا يجعل لابيه سبيلاً عليه ، فكانت لسنه ارفع خطة ، كما يقول .

ولبث ابو عامر متصلاً بالمظفر بعد وفاة ابيه المنصور وانتقال الامر اليه (٣٩٢ هـ) . ولكن ليس لدينا من اخباره في عهد هذا الامير ما يستحق الذكر ، وكانت ولايته سبع سنوات ، وتوفي سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م). ومع ان ابن شهيد بلغ رتبة الوزارة في الدولة العامرية ، إلا انه لم يصل الى منزلة الكتابة في الديوان ليلقب بالوزير الكاتب ، على شدة تشوفه الى بلوغ هذا الشرف اسوة بغيره من الوزراء الادباء . ويخبرنا ان ثقل سمعه قعد به عن الكتابة للامير ، كما قعد بالجاحظ عنها افراط

جحوظ عينيه ، وبأبي القاسم ابن الافليلي ورم انفه[1] ، ويقول في ذلك : « اذ لا بد للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليها عينه ، واذن ذكية تسمع منه حسه ، وانف نقي لا تذم انفاسه عند مقاربته له . »

وصار المُلك بعد المظفر الى اخيه عبد الرحمن الناصر ، فجرى كأخيه وأبيه ، في الحجر على الخليفة هشام بن الحكم ، والاستقلال بالأمر دونه . ثم طمعت نفسه في الخلافة ، بعد شهر من ولايته ، ولم يكن لهشام أولاد ، فطلب منه ان يوليه عهده ، ففعل . فسخط الأمويون على الخليفة الضعيف لاخراجه الامامة من أيديهم ، فخلعوه وسجنوه ، وبايعوا محمد بن هشام المهدي ، من حفدة عبد الرحمن الثالث . وكان الناصر في طليطلة ، فلما بلغه الخبر قفل الى قرطبة ، ولكنه لم يجرؤ على دخولها لأن جيشه تخلى عنه ، والفقهاء أخذوا يحرّضون الناس عليه . وكان يلقب بالشنشول او الشنجول (Sanchol) وهو تصغير سانشو او شانجُه ، لأن امه أميرة اسبانية ، وأبوها شانجه إما انه ملك

---

١ قال ابن بسام في الذخيرة ان محمد بن عبد الرحمن المستكفي الخليفة الاموي ، استكتب ابا القاسم ابن الافليلي بعد كاتبه الوزير بن برد ، فوقع كلامه جانباً من البلاغة ، لانه كان على طريقة المعلمين المتكلفين . فلم يجر في اساليب الكتاب المطبوعين ، فزهد فيه .

قشتالة او ملك النافار، كما يقول دوزي[1]؛ فكلاهما كان يخطب ود الحاجب المنصور، ويرغب في الازدلاف اليه. فلم يسع الفقهاء أن يسلموا مقاليد الخلافة الى الشنجول، وهم يرون فيه شانجه الصغير وابن ملك الاسبان، فما زالوا يهتفون به حتى أثاروا الحفائظ عليه، فكرهت نفسه البقاء، وأحبّ الانتحار فلم يُتح له، لأن المهدي أدركه بوزيره فقبض عليه، واحتزّ رأسه، فزالت بموته الدولة العامرية سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٩م).

الفتنة

غير ان محمد بن هشام لم يستقر ملكه على حال لأنه جافى البربر لميلهم الى العامريين، فاجتمعوا بظاهر قرطبة، فأتمروا به، وبايعوا سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الثالث الناصر، وتسمى بالمستعين. فقامت الفتنة بين الاميرين، واتسعت ميادينها، فغزا البرابر قرطبة، فاستولوا عليها بعدما قتلوا خلقاً عظيماً منها؛ ودخلها المستعين في ختام المائة الرابعة للهجرة، وهرب المهدي الى طليطلة يستنصر الاسبانيين، فأمدوه بالعساكر، فنهض بهم الى قرطبة، فامتلكها وهزم المستعين والبرابرة. ثم

---

١ يقول بروكلمن انه ملك النافار.

عاد هؤلاء الى محاربته، فخشي القرطبيون من اقتحام البربر عليهم، فثار الصقالبة ، فأخرجوا هشام بن الحكم من السجن، وجددوا له البيعة ، على امل ان يعتصموا به من البرابرة ، وقتلوا المهدي تخلصاً من الفتنة التي اثارها عليهم . ولكن المستعين استمر على حصار قرطبة حتى افتتحها عنوة سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣م) فقتل هشاماً، وتولى مكانه ، وتغلب البربر على الاحكام بعدما انتهبت العاصمة وخرب اجمل قصورها، واصيبت مثلها المدن والقرى في جوارها .

وكان علي بن حمّود الادريسي قد جاء الأندلس من المغرب، فدعا البربر الى مبايعته ، فأجابوه لما للادارسة من الكرامة عندهم، فدخل قرطبة سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) فقتل المستعين ، وتلقب بالناصر . فثار عليه خيران الصقلبي صاحب المَرِيَّة ، والمنذر ابن يحيى التُجِيبيّ صاحب سَرَقُسطة ، وبايعا عبد الرحمن الرابع ، من عقب الناصر عبد الرحمن الثالث ، فتلقب بالمرتضى. واستقام الامر لعلي بن حمود نحو عامين الى ان قتله صقالبته في الحمام سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٨ م) فقام بالامر بعده اخوه القاسم ، وتلقب بالمأمون ، فجمع خيران والمنذر الناس ، وفيهم رجال الدين ، فصدّقوا بيعة المرتضى ، ونصبوه خليفة بشرقي الأندلس . ثم ساروا به الى غرناطة ، وعليها زاوي بن زيري من حزب قاسم

ابن حمود ، فرفض المبايعة ، وقاتلهم. فاتفق المنذر وخيران على خذل المرتضى لأنه ابى ان ينزل على مطالبهما ، ففاوضا ابن زيري في ذلك ، ثم انهزما برجالهما ؛ فقاتل المرتضى حتى صُرع كثير من اصحابه حوله ، وانكشف عنه الباقون ، فخاف ان يُقبض عليه ، فولّى الى وادي آش ، فلحق به رجال خيران فذبحوه سنة ٤٠٩ ﻫ (١٠١٨ م) .

واستوى القاسم بن حمود على العرش مدة اربع سنوات ، حتى جاء من طنجة يحيى ابن اخيه علي ينازعه الملك ، فاستولى على قرطبة سنة ٤١٢ ﻫ (١٠٢١ م) وتلقب بالمعتلي ، وفر المأمون الى اشبيلية فاستجاش بعض البرابرة ، ثم رجع الى قرطبة سنة ٤١٣ ﻫ وملكها ، وهرب المعتلي الى مالَقة ، وتغلب على الجزيرة الخضراء ، واستولى اخوه ادريس على طنجة وهي حصن للمأمون وراء البحر .

ثم ثار اهل قرطبة على المأمون واصحابه البربر المستبدين بالاحكام سنة ٤١٤ ﻫ (١٠٢٣ م) فخرج الخليفة الى اشبيلية ومنها الى شريش . وبايع القرطبيون عبد الرحمن الخامس اخا المهدي ، وتلقب بالمستظهر ، ولكنه لم يملك سوى سبعة واربعين يوماً حتى قتله جماعة من الشعب ، فخلفه محمد الثالث المستكفي ابن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الخليفة الاموي عبد الرحمن الناصر .

ولم يلبث البرابرة ان تخلوا عن المأمون بن حمود ، وبايعوا ابن اخيه المعتلي سنة ٤١٥ ه ، فزحف الى عمه واعتقله ، وجاء به الى مالَقَة .

ثم خلع اهل قرطبة المستكفي سنة ٤١٦ ه بعد ستة عشر شهراً من ولايته ، وجددوا بيعة المعتلي فاستعمل عليهم ابن عَطّاف ، وهرب المستكفي الى الثغر ومات هناك .

وانتقض القرطبيون سنة ٤١٧ ه (١٠٢٦ م) على المعتلي وصرفوا عامله عنهم ، وبايع الوزير ابو الحزم جَهْور عميد جماعتهم لهشام بن محمد اخي المرتضى ، وكان بلاردة في الثغر عند ابن هود . فلما انتهى اليه خبر البيعة انتقل الى البرَنت سنة ٤١٨ ه ، وتلقب بالمعتدّ بالله ، واقام متردداً في الثغر نحو ثلاث سنوات ، حتى اشتدت الفتن بقرطبة بين رؤساء الطوائف ، فاتفقوا على استدعائه ، فجاء العاصمة آخر سنة ٤٢٠ ه ، فأقام بها حتى خلعه الجند سنة ٤٢٢ ه (١٠٣٠ م) ففر الى لاردة ، ومات بها سنة ٤٢٨ ه فانقطعت به الدولة الاموية .

واستبد بالحكم بعده في قرطبة العميد ابن جهور ، غير ان المعتلي بقي يردد العساكر لحصارهم الى ان اسلمت له الحصون والمدائن ، فعاد الامر اليه حتى قُتل سنة ٤٢٦ ه (١٠٣٤ م) وهو يحارب القاضي محمد بن عبّاد الثائر باشبيلية ، فذهبت بموته

سلطة الدولة الحمودية العلويّة عن قرطبة ، وقامت حكومة الجماعة الأرستقراطية ، وعلى رأسها ابو الحزم جهور بن محمد ابن جهور من ملوك الطوائف .

ابن شهيد والمؤتمن

فهذه الفتنة العمياء التي تقاذفت الأندلس طوال خمس وعشرين سنة ، حتى افضت الى تقطيع اوصالها ، لم يبلغ الينا خلالها من اخبار ابي عامر بن شهيد سوى نُبَذ متفرقة لا يتألف منها بحث متساوق في حياته ، فرأينا ان نسدّ ثلماتها بما نستطيع استخلاصه من شعره ونثره مستضيئين بمعالم التقلبات السياسية التي مرت به بعد وفاة الناصر بن ابي عامر سنة ٣٩٩ ه ؛ فان رسائله الى عبد العزيز المؤتمن بن الناصر تدلنا على انه لبث في قرطبة لا يبرحها ، مع ما نال اولياء نعمته من غِيَر الدهر ، فانزعجوا عن دار ملكهم ، وتفرقوا في البلاد الأندلسية ، فذهب المؤتمن الى الجهة الشرقية من بلنسية وتُدمير ، واستقر بها ، فلم يغفل ابو عامر عن مكاتبته ، والاشادة بافضال العامريين عليه وعلى ابيه . ويرجو منه ان يَصرِف له ضيعة كان وزير والده قد وعده بها ، فحالت الفتن دون انجاز وعده . ويضم الى الرسالة قصيدة طويلة في مدحه ، يذكر بها الفتنة ومقتل الناصر

وانتشار الفوضى بعده ، ويحرضه على استرجاع الامر ، وكشف الغمائم ، مستبشراً بانه انتضى عزيمة ماضية لاحت بوارق سعدها في انتصاره على السودان اذ ضربهم بالصقالبة البيض :

من فتنةٍ قد أُسبِلت
ظُلُماتها بيد المظالمْ

عمَهت لها احلامنا
وكأنها اضغاث حالم

وتضاءلت اجرامنا
فيها بمُوبقةِ الجرائم

وتحوّلت فيها الذُنا
بى الرأسَ ، وابنُ المجد راغم

وأدار كل صغيرِ قدر
المُنتهى أرْحِي العظائم[1]

فكأننا عُمْيٌ نُسا
قُ على العمى ، في ظلٍّ عاتم

---

١ الارحي : جمع الرحى .

حتى انتضى عبد العزيز
عزيمةً من صدر عازم

ضربَ الأعاجمَ سُودَها
بالصيد من بيض الأعاجم[1]

فاستجفلوا فكأنما
ضَرب الثعالبَ بالضراغم

رَغماً لمؤتمَنٍ رعى
فينا الحدايثَ والقدايمْ

بدأت أوائله وعا
دَ لكشفِ غاشيةِ الغيام[2]

لا تتركنْ صرمَ الزمانِ
على ظُبى تلك الصوارم

وارمِ الخطوب بمثلها
عزماً ، فأنت لها مُساهم

وتلقّى جواباً من المؤتمن يدعوه فيه الى الالتحاق به ، فرد

---

١ بالصيد : في الاصل بالسد .

٢ الغيام : الظلمات .

عليه معتذراً لأنه لا يستطيع هجر قرطبة لتعلق قلبه بها :

«وقد كان أقلُّ حقوق مولاي ان أقف ببابه ، وأُخيِّم بفِنائه ، وأُهدي اليه الشكر غَضّاً ، وأنثر عليه المدح نضّاً[1] . ولكني ممنوع ، وعن ارادتي مقموع ؛ يملِكني سلطان قدير ، وأمير ليس كمثله أمير : شيء غلب صبر الاتقياء واستولى على عزم الأنبياء ، وهو العشق : باطلٌ يلعب بالحق ليَتبيَّن ضعفُ البشر ، وتلوحَ قدرة مُصرِّف القَدَر . والذي أشكو منه أغرب الغرائب ، وأعجب العجائب : بثٌّ شاغل ، وبَرْحٌ قاتل ، وصبر بغيض ، ودمع يفيض ، لعجوزٍ بخراء ، سَهِكة درداء[2] ، تدعى قرْطبة :

عجوزٌ ، لَعَمْرُ الصبا ، فانيَهْ ،
لها في الحشا صورة الغانيَهْ

زنت بالرجال على سِنّها ،
فيا حبّذا هِيَ من زانيهْ !»

فقد اقعدته قرطبة عن السفر الى ابن من رفعوا قدره وقدر ابيه ، فاجتزأ بتدبيج الرسائل ، وقرض اشعار الغزل والمدح ؛

---

١ نضاً : خالصاً .

٢ سهكة : اي ذات رائحة كريهة . درداء : ذهبت اسنانها .

ولعله لم يكن يتوقــع له النجـاح المأمول ، فلم يشأ ان يغرر بنفسه في الذهاب اليه ؛ والفتن في كُوَر الأندلس كالوباء العاصف تجتاح الكبير والصغير ، فآثر البقاء في بلده يستقبل خليفة ويودع خليفة ، ساعياً لان يتصل بكلٍّ منهم ، على امل ان يستعيد ما كان له من سابق العز في الدولة العامرية .

عند المستعين

ولكن ليس في اخباره وآثاره ما يدل على اتصاله بالمهدي قاتل مولاه الناصر . ومن الطبيعي الاّ يلقى حظوة عنـده ، فيبتعد عن القصر مدة خلافته الى ان يتم الامر للمستعين ، وتهدأ الفتنة الاولى في قرطبة بعد مقتل المهدي ، ومقتـل المؤيد هشام بن الحكم ، فنسمعه يمدح المستعين بقوله :

لعلّ نسيم الريح تأتي به الصَّبا
بنشر الخُزامى والكِباء المعبَّقِ[1]

كأنّ عليهـا نفحةً عَبشميَّةً
أتت من جناب المستعين الموفَّقِ[2]

---

١ الكباء : عود البخور او ضرب منه .

٢ عبشمية : نسبة الى عبد شمس اي الامويين .

فنلتَ الذي قد نلت ، اذ ليس للعلى
سواكَ ، كأنَّ الدهر للناس مُنتَقِ

على ان خصومه وحساده من الأدباء والوزراء لم يحجموا عن النيل منه لدى الخليفة الاموي ؛ حتى اتهموه بشعر قاله ، فأنكروه عليه ، او شكّوا فيه ؛ وفي رسالة التوابع والزوابع يشير الى ذلك فيقول : « اما ابو محمد، فانتضى عليَّ لسانه عند المستعين ، وساعدته زَرافة استهواها من الحاسدين ؛ وبلغني ذلك فأنشدته شعراً :

وبُلِّغتُ اقواماً تجيش صدورهم
عليَّ ، واني منهمُ فارغ الصدر

أصاخوا الى قولي ، فأسمعت مُعجزاً
وغاصوا على سرّي فأعياهمُ امري

فقال فريق: ليس ذا الشعرُ شعرَه
وقال فريق : أيمُنُ اللهِ لا ندري »

ويبدو ان حاله ساءت عند المستعين ، فأخذ يعاتبه على طريقة المتنبي في عتاب سيف الدولة بقصيدته « واحرَّ قلباه » ؛ فاذا هو يشقى بحب الامير ، ويشكو الحساد ويفاخرهم ، ويحذره من الندم اذا رحل عنه الى قوم آخرين يكرمونه ، ويرعون حق العلى فيه .

والظاهر انه يُلمع الى علي بن حمود الذي جاء الأندلس من المغرب لينتزع الخلافة من المروانيين :

لئن وردتُ سُهيلًا غِبَّ ثالثةٍ
لتَقرَعَنَّ عليَّ السنَّ من ندمِ

في خلافة الحموديين

بيدَ انه لم ينعم عند الحموديين في إبّان دولتهم، فان سعايات الخصوم والحساد افضت به الى السجن ، إما في عهد علي بن حمود او في عهد اخيه القاسم . وله قصيدة اثبتها الفتح بن خاقان في كتابه « مطمح الانفس » يشكو بها ما لحقه من الضيم والمهانة عند الخليفة العلوي ، منها قوله:

قريبٌ بمحتلِّ الهوانِ بعيدُ
يجود ويشكو حُزنَه فيُجيدُ

نعى ضَرَّه عند الامام ، فيا له
عدوّاً ، لأبناء الكرام حسود[1]

ثم لم يلبث ان استقامت اموره في زمن المعتلي يحيى بن علي

---

١ حسود : فاعل نعى.

(٤١٢ ﻫ) يدل على ذلك كثرة مـدائحه له . ولم يطـل حكم المعتلي في قرطبة ، فان عمه القاسم المأمون استعادها منه سنة ٤١٣ ﻫ ، كما مر بنا ، واكرهه على الفرار بسريره الى مالقة ؛ فكان ابن شهيد يكتب اليه بقصائد المدح والتهنئة، منها قصيدة يهنئه فيها بانتصاره على السودان في وقعة اشبيلية :

اجريتَ للزَّنج فوق النهر نهرَ دمٍ
حتى استحال سماءً جُلّلت شفقا

ولما ثار اهل قرطبة عـلى المأمون وقتلوه ، وبايعوا الامير الاموي عبد الرحمن المستظهر ، وجد فيه ابو عامر فتى كريماً في الثالثة والعشرين من عمره يألفه ويأنس بأدبه ، ويرفع قدره كما رفع اقدار غيره من الوزراء بقايا بني مروان ، غير انه لم يملك سوى سبعة واربعين يوماً حتى قُتل ، وبويع بعده للمستكفي ؛ وليس لدينا ما يدل على اتصال الشاعر بالخليفة الجديـد ، وانما نعلم انه لم ينقطع عن مكاتبة المعتلي ، وربما كان يكاتب المؤتمن ايضاً ؛ وله قصيدة يتظلم فيها من بني امية ، ويرجو الخير عند الهاشميين بني حمود ، وقد ازمع على الخروج من قرطبة لاحقاً بيحيى بن علي في مالقة ، يقول فيها:

لئن اخرجتني عنكمُ شرُّ عُصبةٍ
ففي الارض اخوانٌ علـيّ أكارمُ

وإن هَشمت حقي اميّةُ عندها
فهاتا على ظهر المحجّـةِ هاشم[1]

مرضه الاخيرة

ولا نحسب انـه هجر قرطبة طويـلاً ، لانه لم يكن يطيق الابتعاد عن ملاهيها ولذاتها ، فجميع اخباره واشعاره صادرة عنها ، وان لم يبلغ الينا منها ما يطلعنا على علاقته بالمعتدّ آخر الخلفاء الامويين ، ولا ما كان من امره بعد عودة الحكم الى المعتلي؛ وانما نعلم انه اعتل في آخر عمره ، فلزمه الداء بضع سنين حتى غلب عليه الفالج في مستهل ذي القعدة من سنة ٤٢٥ ﻫ وذلك نتيجة انغماسه في حياة الراحة والترف ، واطلاقه العنان لشهوات النفس ، وادمانه مجالس الشراب ، واجهاده الفكر والاعصاب في النظم والتأليف . ولكنه لم ينقطـع عن الحركة اصـلاً ، فكان يمشي الى حاجته معتمداً على عصا او على انسان ، الى قبل وفاته بعشرين يوماً ، فانه صار يُنقل في المحفّة ، ولا يحتمل ان يُحرّك لعظيم الاوجاع ، مع شدة ضغط الانفاس ، وعدم الصبر حتى همّ بقتل نفسه ، وفي ذلك يقول :

---

١ هاتا : بمعنى هذه . تا اسم اشارة الى المؤنث ، وها للتنبيه .

أنوح على نفسي وأندب نُبلَها
اذا انا في الضَرّاء أزمعتُ قتلَها

رضيتُ قضاء الله في كل حالة
عليَّ واحكاماً تيقّنتُ عدلَها

اظلُّ قَعيد الدار تَجنُبني العصا
على ضعف ساقٍ أوهن السقم رجلها

ومع ذلك لم يعطّل لسانه ، ولا انقطع عن قول الشعر ، فكان يراسل به اصدقاءه من الوزراء والادباء . وقد اوصى ان يُدفن بجنب صديقه ابي الوليد الزجّالي ، وان يُكتب على قبره في لوح رخام هذا النثر والنظم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، قل هو نبأ عظيم انتم عنه معرضون . هذا قبر احمد بن عبد الملك بن شُهيد المذنب ، مات وهو يشهد ان لا اله الاّ الله ، وحده لا شريك له ، وان محمداً عبده ورسوله ، وان الجنة حق ، وان النار حق ، وان البعث حق ، وان الساعة آتية لا ريب فيها ، وان الله يبعث من في القبور . مات في شهر كذا من عام كذا :

يا صاحِبي ، قُمْ ، فقد اطَلْنا
أنحنُ ، طولَ المدى ، هُجودُ ؟

فقال لي : لن نقوم منها
ما دام من فوقِنا الصعيدُ

تذكرُ كم ليلةٍ لهونا
في ظِلّها ، والزمانُ عيد؟

وكم سرورٍ همى علينا
سحابةٌ ثرّةٌ تجود؟

كلٌّ ، كأنْ لم يكنْ ، تقضّى
وشؤمه حاضرٌ عتيد

حصّله كاتبٌ حفيظٌ ،
وضمّه صادقٌ شهيد

يا ويلنا إن تنكّبتنا
رحمةُ مَن بطشُه شديد

يا ربُّ عفواً ، فأنت مولى
قصّر في امركَ العبيدُ»

وما زال كذلك حتى توفاه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الاولى من سنة ست وعشرين واربع مائة وهي السنة التي قُتل بها المعتلي ، وكان في الرابعة والاربعين من عمره . قال ابن بسام : « ولم يُشهد على قبر أحد ما شُهد على قبره ، من البكاء

والعويـل ، وأنشد عـلى قـبره من المراثي جملـة موفورة لطوائف كثيرة . »

لهو ومجون

لم تشغل السياسة ابن شُهيد ، على تقلبها في عصره وتقربه الى ذوي السلطان ، بقدر ما شغلته ملذات قرطبة وملاهيها ؛ فقد كان من اولئك الشبان الذين يتهافتون على ارتشاف عُسيلات الحياة لا يتورعون من مواقعة محرّماتها ، حفاظاً لدين ، او صيانة لكرامة . وتأتّى له من شرف المقام ، وبسطة العيش ما جعله يطلق يـديه في البذل والعطاء لاجتناء الطيبات ، واصطفاء الاحباب والخلان ، حتى شارف الاملاق ، واتاح لاعدائه وحسّاده ان يصلتوا عليه ألسنة حداداً لدى الملوك والامراء ؛ فألقاه ابن حمود في غيابة السجن ، وكان مجونـه من اسباب سخطـه عليه ؛ واراد ان يعتذر فلم يستطع انكار ما نُسب اليه :

وما ضرّه الا مُزاحٌ ورِقّةٌ
ثنَتهُ سفيهَ الذِكر وهو رشيدُ

فان طال ذكري بالمُجون فانني
شقيٌّ بمظلوم الكـلام ، سعيد

وهل كنت في العشاق اولَ عاقل
هوت بحِجاه أعينٌ وخدود؟

وان طال ذكري بالمجون فإنها
عظائمُ لم يَصبِرْ لهنّ جليدُ!

وعلمنا انه بلغ رتبة الوزارة ، ولم يبلغ منزلة الكتابة في الديوان ؛ وزعم ان ثقل سمعه اخّره عنها ، وما كان ينبغي له ان ينسى فتكه وعبثه ، فان الملوك يؤثرون في الكاتب العقل والرصانة على الهزل والمجون ؛ مع انه في كلامه على الجاحظ اضاف اليه خفة العقل ، وقال انها قعدت به عن الكتابة ، كما قعد به عنها جحوظ عينيه :

« وربما انكر منكر قولنا في شرط جمع أدوات الكتابة فقال : واي اداة نقصت الجاحظ ؟ فنقول : اولُ ادوات الكاتبِ العقلُ ، ولا يكون كاتب غير عاقل . وقد نجد عالماً غير عاقل ، وجدَلياً غير حصيف ، وفقيهاً غير حليم . وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهل[1] اكثر من نسبته الى الجاحظ . »

ورأيناه يأبى الخروج من قرطبة للقاء مولاه المؤتمن في مالقة ، مع حبه له ، لانه لم يطق فراق تلك العجوز الزانية ، التي تقود اليه ضروب الملذات .

---

١ سهل : اي سهل بن هارون .

قال ابن بسام في صفة اخلاقه :

« منهم ابو عامر بن شهيد فتى الطوائف ، كان بقرطبة ، في رقته وبراعته وظرفه ، خليعها المنهمك في بطالته ، واعجب الناس تفاوتاً ما بين قوله وفعله ، وأحطهم في هوى نفسه ، واهتكهم لعرضه ، وأجرأهم على خالقه . »

وقال فيه ابن حيّان :

« غلبت عليه البطالة ، فلم يحفل في آثارها[١] بضياع دين ولا مروءة ، فحط في هواه شديداً ، حتى اسقط شرفه ، ووهّم نفسه راضياً في ذلك بما يلذه ، فلم يقصّر عن مصيبة ، ولا ارتكاب قبيحة . »

وكانت النساء المحصنات تتجنب لقاءه ، وتبتعد عنه ، اذا رأته ، خشاة ان يتعرض لهن بشعره فيفضحهن به . وكان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه اكثر نهاره ، فقعد فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان ، في جماعة من اخوانه ، فاذا امرأة من اعيان اهل قرطبة ، اطلت تتوارى بين جواريها ، وأمامها طفلها يرافقها الى المسجد . فلما وقعت عينها على ابي عامر ، ارتدّت مولية عنه ، وكرهت ان تمر بـه ، ولكنها لم تسلم من معرّة لسانه ، فقد رآها مقبلة مدبرة ، فراقه منظرها على الحالين ، فقال فيها شعراً فضحها به وشهّرها ، على غير ذنب منها .

---

١ في آثارها : لعلها في ايثارها .

وذكر الفتح بن خاقان علته في آخر حياته ، فرجا ان يكون له فيها كفّارة عن ذنوبه ، قال :

« واحسب ان الله اراد بها تمحيصه ، واطلاقه من ذنب كان فنيصه ، فطهره تطهيراً ، وجعل ذلك على العفو له ظهيراً ! »

ولم يكن ابن شهيد في مرضه الاخير قد بلغ السن التي تضعف بها شهوات النفس ، ونزوات اهوائها ، ولا سيما من كان مثله حِلْس لهو ، وتتبُّع نساء ، فظل ، على تحكم الفالج بجثمانه ، وشعوره العميق بآثامه ، يحن الى الماضي البهيج ، ويشتاق العيون السواحر ، فيقول ، حين همّ بقتل نفسه تخلصاً من الاوجاع :

عليكم سلام من فتى عضّه الردى
ولم ينسَ عيناً اثبتت فيه نَبلَها

ويقول ايضاً في علته :

وليس عجيباً ان تدانت منيتي،
يصدّق فيها أوّلي امرَ آخري

ولكن عجيباً أنّ بين جوانحي
هوًى كشَرار الجمرة المتطاير

يحرّكني والموت يحفِز مهجتي،
ويهتاجني، والنفس عند حناجري

ولم يزل قلبه يخفق للحب واللهو ، وتعتاده صبوة الشباب ، حتى مات .

اصحابه وأهل مودته

هؤلاء الاصحاب منهم الامراء ، ومنهم الوزراء ، ومنهم الادباء ، جمعتهم قصور قرطبة ودواوينها ، ومجالس سياستها وأنسها ، وأيام نعيمها وبؤسها ؛ فكان ابو عامر نقطة الدائرة الادبية في عصره ، يرفع الامراء قدره ، ويخطب الوزراء صداقته ، ويتبارى الشعراء والكتّاب بمساجلته ، واستحثاث قريحته . فأخلص الود لمن وجد فيه المودة والاخلاص ، فلم ينسَ العامريين في نكبتهم ، ولا كفر فضلهم بعد زوال نعمتهم ، وافراط الامويين عليهم ، بل لبث يشيد بذكرهم في شعره ورسائله ، ويتمنى رجوع دولتهم ، ويحض المؤتمن على الثورة ، وطلب الملك المفقود . وكذلك كان شأنه مع المعتلي يحيى بن علي بعد استيلاء عمه المأمون على قرطبة . وأحب من الأمويين المستظهر بالله ، وكان اديباً شاعراً يعتز به الأدباء ويأنسون بمجلسه ، فحظي عنده مدة خلافته القصيرة . واخباره مع الحاجب ابي عامر بن المظفر مأثورة ، كما يقول ابن حيّان ، فان هذا الامير لم يهجر قرطبة بعد انقضاء الدولة العامرية ، فمضت له بها عيشة راضية ؛ يجتمع اهل الأدب في قصره ، ويشاركونه في لهوه ،

ويخلدون بأقوالهم آثاره ، ولا سيما ابو عامر بن شهيد فانه كان ألهجهم بذكره ، وأكثرهم اختلافاً اليه . فمن جملة اخباره معه ما رواه ابن حيان من انه شاهدهم ليلة في مجلسه ، وطُفَيلة صغيرة عجيبة الخَلق كانت تسقيهم ، تسمى اسماء ، عجبوا من مكابدتها السهر معهم على صغر سنها ، وحسن قيامها بخدمتهم ، فسأل ابن المظفر ابا عامر بن شهيد ان يصفها ، فقال :

أفدي أسَماء من نديمٍ
ملازمٍ للكؤوس ، راتِبْ

قد عجبوا في السهاد منها ،
وهي ، لَعَمْري ، من العجائب

قالوا : تجافى الرقاد عنها
فقلت : لا ترقد الكواكب

ولم يزل على اتصال به ، حتى استوحش ابن المظفر من هشام المُعتد بالله . وخشي ان يطلبه بذنب نُسب اليه ، فخرج من قرطبة هارباً ، ثم التجأ الى حصن على نهرها ، فأجاره صاحبه حرزة اليَصدرانيّ ، فأقام عنده في كمد وغصة الى ان مات .

وأصحابه الوزراء كثرٌ ، وفيهم طائفة من الادباء يمدحونه ويمدحهم ، ويساجلونه ويساجلهم ، امثال الوزير الكاتب ابي

المُغيرة عبد الوهاب بن حزم ، « وكان هو وأبو عامر بن شهيد خليلي صفاء ، وحليفي وفاء ، لا ينفصلان في رواح ومَقيل . » على حد تعبير الفتح بن خاقان . ولم تكن صلته به دون صلته بابن عمه الوزير الأديب ، والعالم الفقيه أبي محمد بن حزم صاحب كتاب الفِصَل في الملل والأهواء والنِحَل ، وكتاب طوق الحمامة في فلسفة الحب وصفاته . وكانا يتقارضان الشعر ، ويتهاديان المدح ؛ فمن قول أبي عامر فيه :

وأنتَ ابنَ حزمٍ مُنعشٌ من عِثارها
إذا ما شَرِقنا بالجدود العواثرِ

وكتب اليه في علّته يقول :

فمَن مبلغٌ عني ابنَ حزم ، وكان لي
يداً في مُلمّاتي وعند مَضايقي :

عليك سلام الله ، اني مفارقٌ ،
وحَسبُك زاداً من حبيبٍ مفارق[1]

فلا تنسَ تأبيني ، اذا ما فقدتني ،
وتذكارَ أيامي ، وفضل خلائقي

---

١ وحسبك زاداً : اي وحسبك السلام زاداً .

فأجابه ابن حزم بأبيات منها قوله :

أبا عامرٍ ، ناديتَ خِـــلّا مُصافياً ،
يُفدّيكَ من دُهمِ الخطوب الطوارق

وألفيتَ قلباً مُخلِصاً لك ، مُمحّضاً
بودّكَ ، موصولَ العُرى والعلائقِ

فان تَنجُ ، قلتُ : الحمدُ لله مُخلِصاً ،
فمن أعظم النُعمى بقاءُ المُصادِقِ

وكان صديقه الوزير أبو مروان بن الجزيري يساجله في القريض معترفاً بفضله مع أنه كان يومئذ في نحو الثانية عشرة من عمره ، لأن المظفر عقد له على الشرطة وهو دون العاشرة ، وكان أبو مروان من وزراء الدولة . ثم غضب المظفر على الجزيري ، فسجنه في المُطبَقِ ومات فيه مخنوقاً سنة ٣٩٤ ﻫ (١٠٠٣ م) وابن شهيد في الثانية عشرة . فمساجلة أبي مروان له في الشعر ، وهو صبي ، تدل على نبوغه المبكر . فقد كتب اليه مرة يسأله عن الورد :

قـــل للوزير الذي بانت فضائلُهُ ،
وقـــام فينا مَقامَ الغيث نائِلُهُ :

أواخِرُ الورد ، اذ نجنيه مُلتقطاً ،
أزكى وأعطَرُ نَشراً ، أم أوائِلُه ؟

فأجابه :

يا سيداً ، أرِجَتْ طيباً شمائلُهُ ،
وشاكهتْ شِعرَه حُسناً رسائِلُهُ

وسائِلاً ليَ عما ليس يجهله ،
ولا الذي كُلِّفَ التفصيلَ جاهلُه

الوردُ عهداً ونشراً صنوُ عهدِك ، لا
تُنسي أواخِرَه طيباً أوائِلُه

ووصلُه ، في كلا الحالين ، مُفتَرَضٌ ،
سِيّان قاطِعُهُ جهلاً ، وواصِلُه

ورثى من أصدقائه الوزراء أبا عبيدة حسان بن مالك ، وزير الخليفة المستظهر أيام الفتنة ، فقال فيه :

أفي كل عام مصرعٌ لعظيمِ ؟
أصاب المنايا حادثي وقديمي !

ورثى من القضاة صَفِيّه أبا حاتم بن ذكوان صاحب المظالم في زمن المظفر وكان قَسيم نفسه ، ونسيم أُنسه ، كما يقول الفتح في مطمح الأنفس ، فقال :

يسيرُ به النَعشُ الأغرُّ وحوله
أباعِدُ راحوا للمصاب أقاربا

عليه حَفيفٌ للملائِك أقبلت
تصافح شيخاً ذاكِرَ الله تائِبا

وقضى أيامه الأخيرة ، بعدما استبد عليه الفالج ، وبات الموت يلاحظه ، في نظم الأشعار وارسالها الى أصحابه ؛ قال ابن بسّام : وبلغني أن آخر شعر قاله يودع اخوانه هذه الأبيات :

أستودع الله اخواني وعِشرَتَهُمْ
وكلُّ خِرْقٍ الى العَلياء سَبّاقِ[1]

وفِتيةٌ كنجوم القذف نَيّرُهُمْ
يَهدي ، وصائِبُهم يُودي باحراق[2]

وكَوكَباً ليَ منهم كان مَغربُهُ
قلبي ، ومَشرِقُهُ ما بين أطواقي

اللهُ يعلم أني ما أفارقه ،
إلا وفي الصدر مني حَرُّ مشتاقِ

كنّا أليفَينِ خان الدهرُ أُلفَتَنا ،
وأيُّ حُرٍّ على صرفِ الردى باقِ؟

---

١ الخرق : الفتى السخي الظريف ، والكريم الخليقة .

٢ نجوم القذف : اي الشهب التي قذفت بها شياطين الجن ، فاحرقتهم ، كما جاء في القرآن .

فإن أعِشْ ، فلعلَّ الدهرَ يجمعنا ،
وان أمُتْ ، فسَيسقيه كذا الساقي

لا ضَيَّعَ اللهُ إلاّ من يُضيِّعهُ ،
ومن تخلّقَ فيه غيرَ أخلاقي!

قد كان بَرْدي ، اذا ما مَسّني كَلَفٌ ،
لا يثلِمُ الحبُّ آدابي وأعراقي

حتى رمتنا صروف الدهر عن كثبٍ ،
ففرّقتنا ، وهل من صَرفِه واقِ ؟

إني لأرمُقُه ، والموت يَضغَطُني ،
فأقتضي فُرجةً مُرتَدَّ أرماقي

وكانت وصيته قبل وفاته أن يُدفن بجنب صديقه أبي الوليد الزجّالي .

خصومه وحساده

بلغ ابن شهيد ، في زمانه ، منزلة أدبية بشعره ونثره رفعت قدره ، في قصور الأمراء ، على أقدار أقرانه ، فأوت اليه جماعة المعجبين به تَلُفُّ لِفَّه وتشيد بذكره، فناله ما ينال الأدباء من الزهو والاعتداد بالنفس ، فتنكر له جماعة من أبناء طبقته وأهل

حرفته ، وحسدوه على نعمة من خفيض العيش يتقلب فيها ، وهِبَة من توقـُّد الذهن يشتمل عليها : نعمة الأرض، وهبة السماء. فراحوا يسعون به لدى الملوك ، ويتنقصون شعره وأدبه وأخلاقه ، حتى حبسه ابن حمود ، وأعرض عنه المستعين . وقد مرّ بنا كيف اعتذر من مجونه ، وذاد عن شعره ، وأزرى على حاسديه . ويذكر في رسالة التوابع والزوابع ثلاثة أشخاص لا يملُّون من الطعن عليه ، وهم أبو محمد وأبو القاسم وأبو بكر . فأبو محمد انتضى عليه لسانه عند المستعين ، واتهم شعره وشك فيه . ولا نعلم من الأدباء من يكنى بهذا الاسم ، وله صلة به ، غير أبي محمد بن حزم ، وكان صديقه كما ذكرنا ، وليس في أخبارهما ما يدل على تخاصمهما في بعض الأوقات ، وانما كان بينهما مكاتبات ومداعبات ، على ما أنبأنا ابن خلكان . ومن معاصريه القاضي أبو محمد عبد الله المعروف بابن الفَرَضي ويكنى أيضاً أبا الوليد ؛ تولى القضاء في دولة المهدي ، وقتله البربر يوم استيلاء المستعين على قرطبة ، سنة اربعمائة للهجرة ، بحسب رواية الذخيرة ؛ غير أن نفح الطيب يجعل مقتله في سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) فيكون قد أدرك خلافة المستعين الأولى وهو رجل ذو حظ من الشعر والأدب ، ولكن لم تُعرف له علاقة صداقة أو خصومة بأبي عامر بن شهيد، فبالأولى أن يكون

المقصود أبا محمد بن حزم لسلاطة لسانه، وقد يحدث أمثال هذه المنات بين الأدباء، وان كانوا أصدقاء .

وليس في التعريف بأبي القاسم مجال للاجتهاد والتخمين، كما هي الحال في أبي محمد، فقد صرح ابن شهيد باسمه في رسالته اذ قال : « وأما أبو القاسم الافليلي، فمكانه من نفسي مكين، وحبه بفؤادي دخيل ؛ على أنه حامل علي، ومنتسب الي . » وأبو القاسم هذا من أئمة النحو واللغة بالأندلس، كثير الحسد والغرور، يجادل على الخطإ، ويتشبث به معانداً . وخصه أبو عامر بمكان من رسالته في عالم الجن، لينتقده وينتقم منه، فأقام له تابعاً سماه أنفَ الناقة، وأخذ يناظره ويسمعه من كلامه حتى أخزاه، فقال : « وعلت أنفَ الناقة كآبةٌ، وظهرت عليه مهابة، واختلط كلامه، وبدا منه ساعتئذ بَوادٍ في خطابه رحمه لها من حضر، وأشفق عليه من أجلها من نظر . »

على أن الافليلي، وان تحامل على أبي عامر، لم يكن ينكر عليه أدبه، وبصره بمذاهب الكلام، فقد عرض عليه يوماً بعض المتأدبين شعراً له استعمل فيه وحشيَّ اللفظ، فقال له : « تنكَّبْ عن هذا الكلام . » فقال : « ان أبا عامر يستعمله . » فقال : « يضعه في موضعه، وهو أدرب منك في استعماله . »

وأما أبو بكر فشأنه شأن أبي محمد في الالتباس والغموض ، فقد يكون أبا بكر بن حزم ، ولا نعرف عنه شيئاً سوى أن أبا عامر صدّر رسالة التوابـع والزوابع بمخاطبته ، وذكر أنه حين سمع كلامه تعجب وقال: « كيف أوتي الحُكم صبياً ، وهز بجذع النخلة فاسّاقط عليه رُطَبا جنيّاً ؟ ! » وقد يكون أبا بكر عُبَادةَ بن ماء السماء ، وهو من مشاهير شعراء قرطبة ووشّاحيها ، لحق الدولة العامرية والدولة الحمودية ، ويقول ابن شهيـد انه توفي بمَالَقة سنة ٤١٩ هـ . وقد يكون الكاتب أبا بكر المعروف بأشكمباط ، وهو من الذين نقدوا أبا عامر وعابوه باستباحـة كنـوز غيره . روى ابن بسام أنه عُرضت عليـه فصول من كلامه ، فقال : « فِقَرٌ حسان الا أنه عثر عليها . » فوصل خبره الى ابن شهيد ، فكتب اليه بما ملخصه : « ما أغيَرَكَ أبا بكر ، على نظم ونثر ، لو إليك كان العلم ، أو بكفك كان الفهم ... عرضتُ عليك الدر منظوماً ، فقلتَ : نعمَ ما صنعتَ لو اخترعتَ ، وما أحسن ما أطلعتَ لو ابتـدعت ، مُعرّضاً بالتقصص[1] ، ومشيراً الى التلصص ... لأقطعنّ حبالك هاجراً ، ولأتركنّ ليلك ساهراً ! »

وله رسالة الى أبي قاسم الافليلي يشكو فيها تغيّرَه عليه ، ويعزو ذلك الى جعفر بن محمد بن فتح ، فيقول : « فبحثت عمن

---

١ التقصص : التتبع .

طرأ عليك من الأنذال ، وحلّ بساحتك من الأعلاج ، فقيل لي : ابن فتح ؛ فأنعمتُ البحث ، وأعملت لطائف الكشف ، حتى صح عندي أنه كدّر صفوك عليّ ، وغيّر شِرْبك[1] لديّ ، فقلت من هاهنا أُتينا ، ومن هذه القوس اللئيمة رُمينا ، وقَصَصي مع هذا العلج طويل . »

وكان ابن فتح ينتسب الى بني هاشم ، فتقرب الى يحيى بن علي المعتلي ، وقدّم اليه صديقه أبا القاسم الافليلي ، ورفع قدره في حضرته . والظاهر أنه كان يكره أبا عامر ، فاستطاع أن يبعد الافليلي عنه بما له عليه من الدالة والتأثير . قال ابن شهيد في رسالته : « ولولا أنه منتسب الى آل هاشم ، الى عصابة أقلّتني كرمهم ، وأظلتني نِعمهم ، ومُسْنَدٌ ، على العِلاّت ، من أبي جعفر[2] الى وزير كان لي وَزَراً[3] ، رقرق شرابي ، وأخصَبَ به جنابي ، لأدرتُ بداره دائرة السوء ، وسريتُ اليها في لُمّة[4] من صعاليك الأحرار ، وصميم الرجال ، فأحرقتها على نازلها ، وجعلت عاليها سافلها ... فاللهَ اللهَ في قَبول هذا القرد والالتباس

---

١ الشرب بالكسر : الماء .

٢ ابو جعفر : اي ابو جعفر اللمائي ، كان وزيراً كاتباً لعلي بن حمود .

٣ وزراً : موئلا .

٤ اللمة : الجماعة .

به ، فانه قُدَارُ[1] مَن لزمه ، وهو والفَرَضيُّ رضيعا لِبان ، وفرسا رهان . »

والفرضي الذي يذكره هنا ، ويجعله صنواً لابن فتح في عدائه وسوء أخلاقه ، هو الوزير الكاتب خالد بن يزيد الكيميائي أبو عبد الله الفَرَضي . وكان الاشتغال بالكيمياء يومئذ غير محمود عندهم ، ولا يسلم صاحبها من التهمة بدينه وخُلقه ، ويخبرنا ابن شهيد في بعض رسائله أن لدى الفرضي حشائش استفادها من كيميائه يستعملها في الشر والفتك . ويقول انه قصده مرة على غير موعد ، فانكشف له ما يخفي من أمر اشتغاله بهذه الصناعة ، فأطلع عليه أحد ثقاته ، فأذاعه بين الناس ، فحقد عليه الفرضي ، وصار يسعى الى ضرره . قال :

« وقصدته يوماً ، على جهل بتلك الخليقة منه ، لأستريح اليه ، وأُلقيَ من شيْئي عليه ، فألفيته قد خلا بابه ، وغاب بوابه ، فولجت ، فثار اليَّ صبيٌّ غرير أصبتُه هنالك ، قائلاً لي : « طال انتظارنا لك ! » وتقدمني ، وسرت ، حتى انتهيتُ الى دار ذات أجوان،[2] قد غشيها دُخان كقِطَع العَنَان[3]، تَعبَق منها

---

١ قدار : عاقر ناقة صالح ، كان شؤماً على قبيلته ثمود .

٢ الاجوان : جمع جون كأرطاب جمع رطب بضم ففتح ، مفردها جونة ، وأصلها الهمز ، وهي سفط مغشى بجلد ، ظرف لطيب العطار ، ويطلق على الخابية .

٣ العنان بالفتح : السحاب .

صُنَّـانٌ من زَرنيـخ وكِبريت ، وزَنجفور[1] وأنزروت[2] ، فتذكرت « يوم تأتي السماءُ بدُخانٍ مُبينٍ يغشى الناس ، هذا عذابٌ أليمٌ . » فاستشعرتُ الشرَّ ، وأردتُ الفرَّ ، ثم التفتُّ ، فاذا أنا بأكداس جمر ، وآلات تِبر ، وأشخاص سود وصُفر . ثم أفضيتُ الى بيت فيه عِدَّة أشباح ، كأنها قُبّاض الأرواح ، غرابيب[3] ، بأيديهم كلاليب ، رزادق[4] ، قد تقلدت مطارق ؛ فلما رأوني صاحوا : « فضحكم الواغل[5] ، فامْحَقوه من عاجـل ! » فلمـا نظرت الى المَنيّة ، وخشيتُ فصـل القضيّة ، ضحكتُ اليهم وقلت : « تخطـتكم النعمة ، ولا هُديتم سبيل الحكمة ، أهكذا تَعجَلون ، ولا تدرون من تُريدون ؟» قالوا : « ومن أنت ؟ » قلت : « من أخذ الطَلْق[6] ، فسحَقه بالمِدَق ، وشق بيد الذكاء ، عن زهرة الأشياء ، فبشـّر الآباء بالأبناء . » فقالوا :

---

١ الزنجفور : المعروف انه يقال له الزنجفر ، وهو معدن متفتت بصاص يعمل منه الحبر الاحمر ، ويتبخر به لنوع من القمل يتشبث بالجلد .

٢ الأنزروت : صمغ فارسي ، ويقال له ايضا عنزروت .

٣ الغرابيب : جمع غربيب، وهو الاسود اللون ، والشيخ يسود شيبه بالخضاب .

٤ الرزادق : صفوف الناس .

٥ الواغل : الداخل على القوم في طعامهم وشرابهم .

٦ الطلق : الشبرم ، وهو نبات له حب كالعدس ، وأصل غليظ ملآن لبناً ، يسهل البطن ، واستعمال لبنه خطر . وانما يستعمل أصله مصلحاً ، بان ينقع بالحليب ويخلط بغيره من العقاقير ، ويصنع منه دواء. وشجر ذو شوك يقال انه ينفع من الوباء .

« بنار أم بماء ؟ » قلت : « بهما جميعاً ، وبهواء . » فأومضوا[1] اليّ ضاحكين ، واستقبلوني معتذرين ، وقالوا : « كِدتَ ، واللهِ ، أن تُلتَهم ، وتكون السواد[2] المُختَرَم[3] ! » قلت : « وأين أبو عبد الله ؟ » قالوا : « انفرد يُرَقّق ماء بَيض ، ويصفّق دم حَيض ، وغرضه استخراج دُهن الحجر الكريم[4] . » فقلت : « نفسٌ[5] حديثٌ أو قديم ؟ » فنادوا : « أواه ، أواه ! على الخبير سقطتم ! » ثم تلطفتُ وخرجت ، تطير بي رجلاي ، وقد حقن الله دمي بعطفه ، واستنقذني من يدَي منيتي بلطفه . ووصفت لمن استوثقتُه ذلك بعد أن استكتمته ، فجاس[6] وخاس[7] ، وكأني أودعتُ سري ريحاً . فاضطغنَ ذلك عليّ ، وأكدَ ذلك معاملةٌ عاملني بها أيام حرب المدينة ، وكانت حبالها ، اذ ذاك ، منبتة[8] ، أعقبَته وقعَ السوط على رأسه ، وعضّ الحِجل[9] على

---

١ اومضوا : اشاروا .

٢ السواد : الشخص .

٣ المخترم : من اخذته المنية .

٤ الحجر الكريم : اي الحجر الفلسفي .

٥ النفس : الحيض ، من نفست المرأة كسمع ، اي حاضت .

٦ جاس : طلب الشيء بالاستقصاء ، وتردد خلال الدور والبيوت .

٧ خاس : غدر وخان ، واخلف بالعهد .

٨ منبتة : مقطوعة .

٩ الحجل بالكسر : القيد .

ساقه ، وكان الأمير بها أبو أيوب[1] بن المرتضى رضي الله عنهما !»

وهذه الرسالة كتب بها أبو عامر الى صديقه الموفق ، أبي الجيش مجاهد أمير دانية ، وذكر فيها أن وطأة الفرضي اشتدت أيام المستظهر ، فحاول الايقاع به ، فنحله شعراً في هجائه ، فوقاه الله شره ، وردّ عنه أذاه ، ولم تنجح مكيدته عند الخليفة لأن ابن شهيد كان مقرّباً اليه . ويلتمس من الموفق ألاّ يصغي الى وشاياته وأكاذيبه ، فيقول :

« فكيف يصغي الموفق ، أيده الله ، الى رجل هذه صفته ، وبيني وبينه ما قد شرحته وأوضحته ؟ فليُجرني من قبول حديث هذا الخبيث فيّ ، واصغائه الى كذبه عليّ ، وليُجِرْ نفسه من عاديته ، وينظُرْ من وجه فائدته ، يجِدْه أشقى الأشقياء ، وأضعف الضعفاء ! »

ومن منافسيه الأدباء أبو جعفر أحمد بن عباس وزير زهير الصَقلبي صاحب المَرِيّة ، وكاتبُ ديوانه ؛ وكان كثير الصلف والتيه ، شديد الاعجاب بنفسه ؛ فلما دخل زهير قرطبة زمن الفتنة أظهر أبو جعفر من الكبر وسوء الخلق ما كرّه الناس به . قال ابن بسام : « وحسبك من جهله وعُجبه أنْ عامَلَ

---

[1] ابو ايوب : الخليفة المستعين .

أهلَ قرطبة الذين فيهم منتماه ، وهم بقيّة الناس ، أيام دخلها مع زهير صاحبه ، بأسوإ ما عنده ، فحجب كبيرهم أبا عمر بن أبي عبدة من غير عذر ، وما عُرف عبّاس أبوه الا بخدمة ابن عمه ، وتنقّصَ أديبهم أبا عامر بن شهيد ولم يكن يُحسن مستملياً له . »

ويحدثنا ابن شهيد عما جرى له معه فيقول :

« لما قدم زهير الصقلبي ، فتى بني عامر ، حضرة قرطبة من المريّة ، وجّه أبو جعفر بنُ عبّاس وزيرُه عن لُمّةٍ من أصحابنا ، منهم ابن بُرد ، وأبو بكر المرواني ، وابن الحنّاط ، والطُبنيّ ، فسألهم عني ، وقال : « وجّهوا عنه . » فوافاني رسوله مع دابّة له بسرج مُحلّىً[1] ثقيل ؛ فسرت اليه ، ودخلت المجلس ، وأبو جعفر غائب ، فتحرك المجلس لدخولي وقاموا جميعاً اليّ ؛ حتى طلع أبو جعفر علينا ساحباً لذيلٍ لم يُرَ أحدٌ سحَبَه قبله ، وهو يترنم ، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال ، فردّ ردّاً لطيفاً ، فعلمت أن في أنفه نُعَرةً[2] لا تخرج إلاّ بسعوط الكلام ، ولا تراض إلاّ بمُستحصِد[3]

---

١ محلى : في الاصل جلي ، والتصحيح للجنة المصرية عن نفح الطيب .

٢ النعرة : الخيلاء والكبر .

٣ المستحصد : الحبل المستحكم .

النظام[1]. فرأيت أصحابي يُصيخون الى ترنّمه، فسألتهم عن ذلك، فقال لي الخاطيُّ، وكان كثيرَ الإنحاء عليَّ، جالباً في المحافل ما يسوء الأولياء، اليَّ: «ان الوزير حضره قَسيمٌ من شعره، وهو يسألنا إجازته.» فعلمت أني المراد. فاستنشدته، فأنشده، وهو:

مرَضُ الجفونِ، ولَثغةٌ في المَنطِقِ

فقلت لمن حضر: «لا تُجهدوا أنفسكم، فلستم المُرادَ.» فأخذت القلم وكتبت بديهة:

مرَضُ الجفونِ، ولثغةٌ في المَنطِقِ،
سبَبانِ، جرّا عِشقَ من لم يَعشَقِ

مَن لي بألثغَ لا يزال حديثُه
يُذكي، على الأكبادِ، جمرةَ مُحرِقِ

يُنبي، فينبو في الكلام لسانُه،
فكأنه من خمر عينيه سُقِي

لا يُنعِشُ الألفاظَ من عَثَراتها
ولوَ انها كُتِبتْ له في مُهرَقِ[2]

---

[1] النظام: اي تأليف الكلام، من نظم اللؤلؤ.

[2] المهرق: الصحيفة.

ثم قمت عنهم ، فلم ألبَث أن وردوا عليّ ، وأخبروا أن أبا جعفر لم يرضَ ما جئنا به من البديهة ، وسألوني أن أحمل مكاوي الكلام على حِتاره[1] . وذكروا أن إدريسَ هجاه فأفحش ، فلم أستحسِن الافحاش ، فقلت فيه معرّضاً ، اذ التعريض من محاسن القول . »

والأبيات فيها فحش كثير ، فما يحسن اثباتها ؛ قال ابن بسام : « وليت شعري ما التصريح عند أبي عامر ، اذا سمى هذا تعريضاً ؟ ! ولولا أن الحديث شجون ، والتتابع فيه جنون ، والكلام ، اذا لان قيادُه ، سهُل اطرادُه ، واذا قرب بعضُه من بعض ، لم يُفرّق فيه بين سماء وأرض ، لما استَجَزتُ أن أشين كتابي بهذا الكلام البارد معرِضُه ، البعيد من السداد غرضُه ، وقد يطغى القلم ، وتجمح الكَلِم . »

ونعلم من حديث أبي عامر عن الوزير ابن عبّاس أن الحنّاطي كان كثير الانحاء عليه ، جالباً إليه في المحافل ما يسوء الأولياء . وصاحبه هذا هو أبو عبد الله بن الحنّاط الضرير ، أحد زعماء النظم والنثر في عصره . قال ابن بسام : « وكانت بينه وبين أبي عامر بن شهيد بعد تمسكه بأسبابه ، وانحياشه – كان – الى

---

١ الحتار : حرف الجفن ، وحلقة الدبر .

جنابه ، مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرقت أبا عامر بالماء ، وأخذت عليه بفروج الهواء . »

ولدينا من هذه المناقضات واحدة للحنّاطي يصف بها زهو أبي عامر وخيلاءه واعتداده بنفسه ، عائباً عليه اسهابه وتطويله ، قال :

« الاسهابُ كُلفةٌ ، والايجاز حِكمة ، وخواطرُ الألباب سهام ، يُصاب بها خواطر الكلام ؛ وأخونا أبو عامر يُسهب نثراً ، ويطيل نظماً ، شامخاً بأنفه ، ثانياً من عِطفه ، متخيّلاً أنه قد أحرز السبَق في الآداب ، وأُوتي فصل الخطاب ، فهو يستقصر أساتيذ الأدباء ، ويستجهل شيوخ العلماء . »

ويقول في مكان آخر داعياً اياه الى معارضته ، متوقعاً عجزه عن اللحاق به :

« فأنشدْها أخاك الشُهيديّ ، وكلِّفْه على العَروض والقافية معارضَتها ، وحمِّله على اللين والشدة مقارضتها ، فستوقد بقلبه قَبَساً ، وتضرب في أذنه جرَساً ، فيتبيّنُ به حظّه ، ويعرف لغيره فضله . »

فهؤلاء الخصوم والحساد أقضّوا مضجع ابن شهيد ، وكدّروا صفو حياته السياسية والاجتماعية ، وأقلقوا حياته الأدبية باعتراضاتهم ومناقضاتهم ، فشغلوا جانباً من شعره ورسائله ، وحملوه على اصطناع النقد ، وتصنيف رسالة التوابع والزوابع .

أدب ابن شهيد

الشاعر

الشعر في بيت أبي عامر عريق النجار ، متلاحق الآثار ، فأبوه عبد الملك شاعر ، وكذلك جده مروان ، وجد أبيه أحمد ابن عبد الملك ، ثم عمه وأخوه شاعران . وهو أجودهم شاعرية ، وأخصبهم قريحة ، وأطولهم نفَساً ، وأوسعهم شهرة ، ولكن لم يُجمَع شعره في ديوان ليُحفظ من الضياع ، أو جُمع ولم يصل الينا ، وانما بلغنا منه ما رواه ابن بسّام في الذخيرة ، والثعالبي في يتيمة الدهر ، والفتح بن خاقان في مطمح الأنفس ، والمَقّري في نفح الطيب ، وابن خَلّكان في وفيات الأعيان . فكان لنا جملة صالحة من القصائد والمقطّعات والأبيات على اختلاف أبوابها وأغراضها ، مع أن المؤرخين اقتصروا على الاختيار ، فقلما أثبتوا قصيدة كاملة ، حتى أن ميميته الطويلة التي دوّن ابن بسّام منها نحو ثمانين بيتاً ، لم تخلص الينا بتمامها ؛ وكان ابن الحنّاط يعيبه بتطويل الشعر كما مرّ بنا آنفاً .

بَيد أن ما وصل الينا من شعره كافٍ لأن يطلعنا على صفاته

العامة والخاصة ، ويجيز لنا دراسته وابداء الرأي فيه ، لأنه يشتمل على مختلف أغراضه ومسالكه في نواحي التفكير والتعبير . فقد طرق من الأبواب والأغراض ما طرقه الشعراء في عصره وقبل عصره ، فمدح ورثى وهجا ، وافتخر وتغزل وشكا ، ووصف المرأة ومجالس اللهو والشراب ، والطبيعة والصيد ؛ وطلب الجديد في انسحابه على أذيال القديم دون أن يكون له أسلوب شخصي يميّزه من غيره ، اذا ذُكرت أساليب الشعراء . ومن غريب أمره أن يأخذ على أقرانه تصديرهم قصائد المدح بعرائس الشعر القديم ، ولا يرى غضاضة في وقوفه على الطلول وذكر الديار والمطيّ ، وهو نزيل القصور ، وربيب الحضارة الأندلسية . قال :

« ومما يَلزم المدّعيَ لصناعة الكلام ، اذا اعتمد وصف حالة ، أن يستوفي جميعها ، ويكون ما يطلبه من الابداع والاختراع فيها غير خارج عنها وما هو بسبيلها ، فذلك أبهى لكلامه ، وأفخم للمتكلم به ، وأدلُّ على أن الكلام له ، لا كما شهدته يوماً عند ابن حمود ، وقد صدر عن ابن الشَرب ، ومدَحه عدة شعراء ، صدورُ أشعارهم لزينب والرباب ولَميس وفَرتنى ، وأعجازُها للجود والكرم وبذل اللُّهى ، ولم يُلمِمْ أحد منهم بذلك الغرض والمغزى إلا في بيتين أو ثلاثة ؛ فأنشدته أنا يومئذ من جملة قصيدة أولها :

فريقُ العِدى من حدّ عزمكَ يَفرَقُ ،
وبالدهر ممـــا خاف بطشَكَ أولَقُ[1] »

وهذا النقد جميل يدل على بصره بالشعر ومذاهبه ، ولكنه اذا طابق قصيدته هذه ، فلا يطابق سواها مثل قوله في مدح المؤتمن :

هـاتيكَ دارُهمُ ، فقفْ بمعَانِها
تجدِ الدموع تجِدُّ في هَمَلانِها[2]

عُجنا الركَابَ بها ، فهيّجَ وجدَنا
دِمَنٌ ذَعَرنَ السِربَ من أدَمانِها[3]

فقد غلب الأسلوب القديم على استهلالاته ، وأسلكه في نظام المحافظين على عمود الشعر التقليدي ، فسار على خطتهم في الوقوف والبكاء وذكر الدمن والآرام ، واستمد من كلام المتقدمين ألفاظه ومعانيه ، فحفلت أشعاره بالرواسم المجمّدة ، والجمل الجاهزة ، فكان فيها مشترك الفكر والخيال والتعبير :

---

١ الاولق : الجنون ، وما يشبهه .
٢ المعان : المنزل .
٣ الادمان : الرماد والسرقين المتلبد .

أمّـا الرياحُ بجوّ عـــاصمْ
فحَلَبْنَ أخلاف الغمـــائمْ

*

خَليليَّ عُوجا ، بارك الله فيكما ،
بدارتهـا الأولى نُحيِّ فِنَاءها

ولم يقتصر في التناول على الشائع العام من كلامهم ، بل جاوزه الى الشخصيّ الخاص الذي يُعَدّ أخذه من السرقات الأدبية ، فاستباح أنعام البدو وكنوز العباسيين ؛ فاذا وصف الصيد على طريقة امرىء القيس ، وذَعَر الوحش بجواده ، وأكل الشواء مثله ، لا يغفل عن تمسيح الأكف بعد الطعام :

نُمَسّحُ بالحَوذان منه أكفّنا ،
اذا ما اقتنصنا منه غير قليلِ[1]

وانما فعل ذلك اتباعاً للملك الضلّيل حيث يقول :

نَمُشُّ بأعراف الجيول أكفّنا ،
اذا نحن قمنا عن شواءٍ مُضهّبِ[2]

---

١ الحوذان : نبت نوره اصفر .

٢ المضهب : اللحم المقطع ، والمشوي على حجارة محماة ، ولم يبالغ في نضجه .

ووصف خيل ابن حمود في الحرب ، فلم يتحرج من الاغارة على أبي الطيّب المتنبي ، قال :

وخيلٍ تمشّى للوغى ببطونها ،
اذا جعلت بالمرتقى الصعب تزلقُ

قال ابن بسام : «وهذا البيت مما لم يُحسن أبو عامر سرقته ، ولا بلغ به طبقته ، وهو من قول أبي الطيّب :

اذا زلِقت ، مشّيتَها ببطونها ،
كما تتمشى في الصعيد الأراقمُ

وربما حاول اخفاء سرقته بتفصيل المعنى وتطويله ، فقد سمع الرماديَّ ، وهو شاعر أندلسي ، يقول :

ولم أرَ أحلى من تبسُّمِ أعينٍ ،
غداةَ النوى ، عن لؤلؤٍ كان كامِنا

فأعجبه تبسم العيون عن لؤلؤ الدمع ، فقال :

ولما فشا بالدمع من سرٍّ وجدنا
الى كاشِحينَا ما القلوبُ كواتِمُ

أمرنا بامساكِ الدموع جفونَنا ،
ليشجَى بما تطوي عذولٌ ولائِمُ

فظلّت دموع العين حيرى كأنها ،
خِلالَ مآقينا ، لآلٍ تَوائِمُ

أبى دمعُنا يجري مخافةَ شامتٍ ،
فنظّمه بين المحاجر ناظِمُ

وراق الهوى منّا عيونٌ كريمةٌ ،
تبسّمنَ ، حتى ما تروق المباسِمُ

وليس من غرضنا أن نتقرى سرقات ابن شُهيد واحتذاءاته ، وانما أخرجنا أمثلة منها لندل بها على شيوع بنات أفكاره وضعف حصانتها . ومن ذلك معارضاته للشعراء ، يبني قصائده على بحور قصائدهم وقوافيها ، ويأخذ من معانيها وألفاظها ، فيشبه شوقي من هذا القبيل ، أو شوقي يشبهه ، فقد عارض رائية ابن أبي ربيعة متوسماً طريقه الى صاحبته بقوله :

وأخرى اعتلقنا دونهنّ ، ودونها
قصورٌ ، وحُجّابٌ ، ووالٍ ، ومعشرُ

يُزيّنها ماءُ النعيم ، وحفّها
من العيش فَينانُ الأراكةِ أخضرُ

اذا رامها ذو حاجةٍ ، صدّ وجهَهُ
ظُبى الباتراتِ والوشيجُ المكسّرُ

تكلّفتُها ، والليلُ قد جاش بحرُه ،
وقد جَعلت أمواجُه تتكسّرُ ،

الى بيت ليلى ، وهو فردٌ بذي الغضا ،
يُضيء كعين المستهام ويَزهَرُ

وعارض بائية البحتري بقوله : « هذه دار زينب والرّبابِ »
وقد قال أبو عبادة :

ما على الركبِ من وقوف الرِكابِ
في مغاني الصِبى ، ورسمِ التَصابي

وأمثال هذه المعارضات وما يشاكلها كثير في شعر أبي عامر ، فما يفتأ يذكّرك بغيره ، فتلقاه تابعاً لا متبوعاً ، ومن أجلها انكشفت مقاتله لخصومه ، فرموه بقوارص النقد ، وشكّوا في شعره ، وعابوا أخذه عن غيره ، فدافع عن نفسه في رسالة التوابع والزوابع ، اذ جعل شيطانَ المتنبي يقول فيه : « سمعت أنه يتناول . » فيرد عليه بقوله : « للضرورة الدافعة ، وإلاّ فالقريحة غير صادعة ، والشفرة غير قاطعة . »

ورأينا أنه لم يتوكأ على القدماء وحدهم ، بل تساند الى المحدَثين أيضاً ؛ فشعره مزيج من جاهلي اسلامي ، وعبّاسي أندلسي ، كسائر الشعراء المولّدين في الشرق والغرب . ولئن

عداه الطابع الخاص في أسلوبه المشترك ليُعرف بـه كغيره من ذوي الطوابع الشخصية ، لم يَعدُه النَفَس الشعري ، والحسّ المرهف ، وبراعـة الوصف ، وحسن التركيب . فإذا قرأت شعره ، وغابت عنك فيـه قوة الابداع ، ومُعجزة الاختراع ، تروقك منه نفحـات زكية الشعور ، دقيقة التصوير ، محكمة التعبير ؛ فيهـا من الحياة والحركة واللون والنَغَم مـا يجيز له الوقوف بجانب الشعراء المحسنين ، على اعتدال درجة الاحسان ، وانخفاضها عن درجة الابداع .

والشعور عنده لا يتعدى الاحساس بالشيء ، ميلاً اليـه أو نفوراً منه ؛ فما هو بالعاطفة المتدفقة ، ولا الروحانية العميقة . وتصويره قريب المأخذ ، يسيرُ التلوين ، تكتنفه المـادة ، ولا يخلو عنه الإحياء والتشخيص ، كوصفه للورد في رده على الوزير أبي مروان . قال ابن بسام : « وقد ضارع أبو عامر هذا محاسن الطبقة العالية البغدادية المضارَعةَ التي بانت فيها قوته ، ولدُنت اختراعاته ومقدرته ، فصار يتناول المعنى الحسن فيصيّره مُحَسّناً بحسن مَساقه . »

ولغته مختارة الألفاظ ، متينة التركيب ، على غير صلابة أو خشونة ، وتغلب الصنعة عـلى صياغته ، فيكثر من الجنـاس والارصاد والتصريع ، والتشابيه والاشارات والأمثال واستخدام

معاني أسماء النجوم ؛ غير أنها لا تنبو عن السمع لأنه لا يسرف فيها ولا يتبغّض . ولم يكن يجهل ذلك التكلف في طبعه ، فجعل شيطانَ أبي نواس في التوابع والزوابع يقول له عندما سمع شعره : « لله أنت ، وان كان طبعك مخترعاً منك ! »

وقلما تلقى النعومة في نغمة أشعاره لتوفّره على الجزالة ، وشدة الأسر ، واعتيام الألفاظ الفخمة ؛ فالجمال الفني عنده مرتفع النبرة في الغالب ، لا ينخفض جَرْسُه إلا في بعض نفثاته . وقد أشار الى ذلك بطبعه النَقّاد عندما أراد أن يصطنع النغم الرقيق على مثال أبيه ، بعدما أورد طائفة من مدائحه ومفاخره ؛ قال ابن بسام : « وأنشد أبو عامر إثر هذا قطعة شعر لأبيه ، هي ثابتة في القسم الرابع من هذا التصنيف ، قال فيها :

قهقهَ الابريقُ منّي ضحِكاً ،
ورأى رِعشةَ رجلي فبكى

ثم قال : فان استهلّ الطاعن صارخاً ، وقال : هكذا الشعر ، وهكذا الطبع ، وهذا الماء رقة وعذوبة ، والهواء لطافة وسهولة ، لا ما كنّا فيه من الشنائع والقعاقع ! قلنا له :

أذَّنَ الديكُ ، فثُبْ ، أو ثَوِّبِ ،
وانضَحِ القلبَ بماءِ العنبِ[1]

وتأمَّلْ آيـةً مُعجِـزةً ،
مـا قرأنا مِثلَهـا في الكتبِ

ركعَ الابريقُ مـن طـاعته ،
وبكى ، فـابتـلَّ ثوبُ الأكوُبِ

ولَوَلَ المِزهرُ ينفي كُرَبي ،
وتطَرَّبْتُ ، فأعيـا طـربي

وربيبٍ قـام فينـا ساقياً ،
كالرَّشا أرضِع بـين الربربِ

ظَبيةٌ ، دون الصبـايا قُصِّصَتْ ،
فأتت غيـداءَ في شكلِ صبي

فُتِّحَ الوردُ عـلى صفحتهـا ،
وحمـاه صُدغهـا بالعقربِ

---

١ ثب : ارجع . ثوب : أقم الصلاة ، وفيه مراعاة النظير لقوله : أذن الديك . انضح : اغسل مطهراً .

فمَشت نحوي ، وقد مُلّكتُها ،
مِشيةَ العصفور نحو الثعلبِ »

فهذه الأبيات جديرة بالشاعر الأندلسي ، غير أنه لم يُكثر من أمثالها لميله الى الأسلوب القديم ، حتى أنه لم يلتفت الى فن الموشحات ، مع ملاءمتها لمجالس لهوه وشرابه ، فأعرض عنها ، في حين كان معاصره أبو بكر عبادة بن ماء السماء قد اشتهر بها ، وأتقن صنعها ، وقوَّم اعوجاجها ؛ ولكنه جارى العبّاسيين في إحياء الطبيعة ، وتمثيلها امرأة حسناء يتلذذ بأوصافها :

سهر الحيا برياضِها ،
فأسالها ، والنُورُ نائمْ[1]

حتى اغتدت زَهَراتُها
كالغيد باللُّجِّ العَوائِمْ

من نَيِّباتٍ لم تُبَلْ
كشْفَ الخدود ولا المعاصم[2]

وصغارِ أبكارٍ شكت
خجلاً ، فعاذت بالتمائمْ

---

١ الحيا : المطر .

٢ لم تبل : لم تبال .

وردٌ ، كما خجِلت خدود —
العِينِ من لحظات هائمْ

وشقيقُ نُعمانٍ شكت
صفَحاتُه من لطْمِ لاطِمْ

وغصونُ أشجارٍ حكت
رقص المآتِمِ للمآتِمْ

وتحدّث اليها وسخّرها لمدح أميره ، على طريقة الأندلسيين ، بقوله يمدح المؤتمن :

وغمامٍ باكَرتْنا عَينُه ،
تُترِع الأفقَ بدمعٍ صَيّبِ[1]

مثلَ بحرٍ جاءنا من فوقنا ،
جِرمُه من لؤلؤٍ لم يُثقَبِ[2]

فدنا ، حتى حسِبنا أنه
يمسَحُ الأرضَ بفضل الهَيدَبِ[3]

١ العين : السحاب من ناحية القبلة .
٢ جرمه : جسمه . من لؤلؤ لم يثقب : أراد به البرد .
٣ الهيدب : السحاب المتدلي أو ذيله .

فسألنـاه ، وقـد أعجبنا
حَشْوُهُ العينَ بمرأىً مُعجِبِ :

أنتَ ماذا ؟ قال : مُزْنٌ عَلَّمتْ
كَفَّهُ النفحةَ كفًّا دَرِبِ [1]

سامَني بالشرق أن أسقِيَكُمْ ،
رحمةً منه ، بأقصى المَغرِبِ [2]

فسألنـاه : أَينْ ذاكَ لنـا ،
قال : هل يخفى ضياء الكوكبِ ؟

مَلِكٌ ، ناصَبَ مَن خـالفكم ،
عامريُّ المُنتمى والمَنصِبِ [3]

فعلمنـا أنهـا نَفحةُ مَن
ورِث الجود أباً بعـد أبِ

ووصف خمرة الدير والساقي على أُسلوب أبي نواس وأصحابه المُجّان ؛ واصطنع الغزل القصصي الليّن كبشّار ، وجاراه في

---

١ النفحة : المعطية .

٢ سامني : كلفني .

٣ ناصب : عادى . المنصب : الحسب والأصل .

غزله العبثي عـلى لسان الحمار والبغـل . وكان شعره في سجنه وعلته أفيض أقواله عاطفة ، وأبلغها تأثيراً ، لاختلاف الشواعر النفسية فيه : من ألم وضعف ، ومهانة ، وتوقُّع للموت ، وإباء وعزة ، ومودة للاخوان . وقد أوردنا أمثلة مختارة من كلامه ، وفي رسالة التوابع والزوابع طائفة حسنة منها ، تشتمل على شتى فنونه وأغراضه ، يمكن الرجوع اليهـا في مواطنهـا من هذا الكتاب .

الكاتب

ذكر ابن خَلِّكان من آثار ابن شهيد كتاب كشف الدك وآثار الشك ، ورسالة التوابع والزوابع ، وكتاب حـانوت عطار ، ورسائل كثيرة . ولكن لم يبلغ الينا منهـا إلا فصول من التوابع والزوابع أوردهـا ابن بسام في ذخيرتـه ، وجملة رسائل مختلفة الأغراض رويت في الذخيرة ويتيمة الدهر للثعالبي. قال ابن بسام :

« وكان أبو عامر شيخ الحضرة العظمى وفتاها ، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاهـا ، وينبوع آياتهـا ، ومادة حياتهـا ، وحقيقة ذاتها ، وابن ساستِها وأُساتها ، ومعنى أسمائها ومسمّياتها ، نادرة الفَلَك ، وأعجوبة الليل والنهار ؛ ان هزل فسجعُ الحمام ، أو

جدٌّ فزئير الأسد الضرغام . نظمٌ كما اتّسق الدرُّ على النحور ، ونثرٌ كما خُلط المسك بالكافور ، الى نوادر كأطراف القنا الأملود ، تشقُّ القلوب قبل الجلود ، وجَواب يجري مجرى النَفَس ، ويسبق رجع الطرف المختلَس . »

وقال فيه ابن حيّان :

« كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفَر الكلام ؛ واذا تأملته ولَسَنَه ، وكيف يجرُّ في البلاغة رسَنَه ، قلتَ : عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في زمانه . والعجب منه أنه كان يدعو قريحته الى ما شاء من نثره ونظمه ، في بديهته ورويّته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب ؛ فانه لم يوجد له ، رحمه الله ، فيما بلغني بعد موته ، كتاب يستعين به على صناعته ، ويشحذ من طبعه إلاّ ما لا قَدْرَ له ، فزاد ذلك في عجائبه ، وإعجاز بدائعه . وكان في تنميق الهزل والنادرة الحارّة أقدرَ منه على سائر ذلك . وشعره حسن عند أهل النقد ، تصرّفَ فيه تصرُّفَ المطبوعين ، فلم يقصّر عن غايتهم .

« وله رسائل كثيرة في فنون الفُكاهة وأنواع التعريض والأهزال : قصارٌ وطوال ، برّز فيها شأوَه ، وأبقاها في الناس خالدة بعده . وكان في سرعة البديهة ، وحضور الجواب

وحدّته ، مع رقة حواشي كلامه ، وسهولة ألفاظه ، وبراعة أوصافه ، ونزاهة شمائله وخلائقه ، آيةٌ من آيات الله خالقه . »

وهذه الرسائل التي ألمع اليها ابن حيّان منها ما خاطب به الأمراء والوزراء ، كرسائله الى المؤتمَن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ، والى الموفق مجاهد أمير دانية ، والى الوزير ابن عبّاس ؛ ومنها ما خاطب به الأدباء ، كرسائله الى أبي القاسم الافليلي ، وابن الحنّاط ، وأبي بكر أشكمياط ؛ ومنها فصول اجتماعية تاريخية ، وأبحاث أدبية ضمّنها نظراته وأحكامه في النقد الأدبي ، سنعود اليها في كلامنا على ابن شهيد الناقد ؛ ومنها رسالة التوابع والزوابع ، وسنخصها بدرس تحليلي على حدة .

ومن حسنات رسائله أنها تضيء جانباً من حياته لم يأبه له المؤرخون ، أو أعاروه من الاهتمام قليلًا ، فبدت من خلالها علاقاته السياسية والأدبية ، وصداقاته وعداواته ، ووفاؤه لأولياء نعمته ، ومودّته للاصحاب والاخوان ، وحدّته على الخصوم والحسّاد ، وسلاطة لسانه في السخر والتعريض وصريح الهجاء . فرسالته الطويلة الى المؤتمن تطلعنا على ما كان له ولأبيه من الحظوة في الدولة العامرية ، وعلى بعض شؤونه في صباه . ورسالته الى الموفق ترجمة لما وقع بينه وبين الفرَضي من العداء

والشحناء . ورسالته الى أبي القاسم الإفليلي فيها عتبه عليه لازوراره عنه ، وجريه في حلبة الفرضي وابن فتح . ومن فصوله وأحاديثه نستخرج جملة من أخباره مع الوزراء والأدباء وآرائه في أبناء زمانه ممن انتحلوا السياسة ، أو طلبوا العلم ، أو احترفوا التعليم . وله في صفة معلمي قرطبة ، وتصوير أخلاقهم ، وشرح أحوالهم في مجالس الأدب ، ما يذكرنا الجاحظ وسخره اللاذع بهذه الجماعة . فمن ذلك قوله :

« وقومٌ من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يَحْنُون على أكبادٍ غليظة ، وقلوبٍ كقلوب البُعران ، ويرجعون الى فِطَنٍ حَمِئةٍ ، وأذهانٍ صَدِئة ، لا مَنفَذَ لها في شُعاع الرِقّة ، ولا مَدَبَّ لها في أنوار البيان . سقطت اليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الايقاع ، والزمر على الألحان ؛ فهم يصرّفون غرائبها ، فيما يجري عندهم ، تصريفَ من لم يُرزَق آلة الفَهم . ومن لم تكن له آلة الصناعة ، مما هي مخصوصة بها ، ولا تقوم[1] تلك الصناعة إلا بتلك الآلة ، فهو كالحمار لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور ، لتوتد

---

١ ولا تقوم : في الاصل : لا تقوم .

رُسْغِهِ[1] واستدارة حافره ؛ ولا له بنانٌ يجُسّ بـه على دَسْتَانٍ[2] . ولو جاز أن يكون حمار يغني :

مـا بالُ أنجُمِ هذا الليل حائرةً ،
أضلَّتِ القصدَ ، أم ليست على فَلَكِ ؟

وشِبهَه ، من أجل أن له حنكاً ولسانـاً ، وقصبة رئـةٍ ، لما جاز أن يوقّع بالمضراب على الأوتار ، ويتمّم بجسّ الأنامل ، ويرخي الوتر في مجرى السَّبّابـة والبِنصِر ، فيبلبل بنشيده ، ويولول في ضربه على بسيطه .

فهذه حـال العصابة من المعلمين : يدركون بالطبيعة ، ويقصّرون بالآلة . وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة للروحانية ، والخـادمة لآلات الفهم ، البـاعثة لرقيق الدم في الشريانات الى القلب ، وزيادةِ غِلَظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعي . ومما يعين على ذلك بالحَدْس وطريق الفِراسة فسادُ الآلة الظاهرة ، كفرطحة

---

١ الوسغ : الموضع المستدق بين الحـافر وموصل الوظيف من اليد والرجل في الدابة .

٢ الدستان من العود : مكان اصلاح الاوتار وشدها ، جمعه دساتين ، في الاصل دستبان وهو تصحيف .

الرأس وتسفيطه[1] ، ونتوء القَمَحْدُوَة[2] ، والتواء الشِدق ، وخزَر العين[3] ، وغلَظ الأنف ، وازوراء الأرنبة[4] . فنستعيذ بالله ألاّ يُشَوّه خلقة قلوبنا ، ولا يُجسِيَ[5] أجرام أكبادنا ، ويضمّ أوتارنا وأعصابنا ، ولا يُعظّمَ أنوفنا ، ولا يجعلَنا مُثلةً للعالمين ! »

وقال فيهم أيضاً :

« ومما عُلم من خُلق هذه العصابة ، اذا لحتنا أبصارهم قابلونا بالمَلَق ، وهم منطوون على حسد وحنق . فإذا جمعتنا المحافل ، وضمتنا المجالس ، تراهم الينا مُبصبصين[6] ، وعن الأخذ في شيء من تلك المعاني زائغين . وانما يتبيّن تقصير المقصّر ، وفضل السابق المبرّز ، اذا اصطكت الرُكب ، وازدحمت الحلَق ، واستُعجِل المقال ، ولم توجد فُسْحة لفكرة ،

---

١ فرطحة الرأس : عرضه . تسفيطه : محاكاته للسفط ، وهو وعاء كالقفة .

٢ القمحدوة : مؤخر القذال

٣ خزر العين : انكسار بصرها وضيقها وصغرها ، أو نظرها بأحد الشقين ، او حولها .

٤ الارنبة : طرف الأنف ، وازوراؤها : تجمعها وتقبضها .

٥ يجسي الشيء : يجعله صلباً .

٦ مبصبصين : فاتحين أعينهم ، من بصبص الجرو فتح عينيه ، أو بمعنى متملقين كتبصبص .

ولا أمكنت نظرة لرويّة ؛ أو في مجالس الملوك عند أنسها وراحتها ، فانه يقع فيها ويجري لديها ما لا ينفع له الاستعداد ، ولا ينفذُ فيه غير الطبع والغريزة المتدفقة . فترى الجواد السابق إذ ذاك مُتشوّفاً[1] بأذنه ، باحثاً لكديد[2] الاحسان بيده ، طامح النظر ، صَهصَلِق[3] الصليل ؛ وأهلُ الصَنعة خُرْس ، لا يُسمع لهم جَرْس ، ولا شيء عندهم غير حَسو الكاس ، وشمّ الآس ، وتنفُّس الصُعَداء ، قد اصفرّت ألوانهم ، وقلَصت شفاههم ، كأنهم من رجال عُذْرة . »

وكذلك بحثه في الكتابة وشروطها ، وصفات أصحابها ، يقرّب الجوار بينه وبين عبد الحميد . وإذا رأيناه يخرج الجاحظ من طبقة الكتّاب ، فانما أراد بهم كتّاب الملوك ، ولم يرد الكتابة بالمعنى المطلق ، كما توهم بعض النقّاد من أهل زماننا . قال :

« ذُكر يوماً عند أبي القاسم سهلُ بن هارون والجاحظ ، فضَرب فيهما مثل العامة : « بينهما ما بين الملائكة وصبيان الحرَس . » هذا من الإنحاء العظيم على سهل ، والأولى أن يسمّيا مُحسنَين ، إلا أن سهلاً كاتبُ سلاطين ، والجاحظ مؤلفُ

---

١ متشوفاً : أي متطلعاً الى الخبر .

٢ الكديد : الأرض الغليظة .

٣ الصهصلق : الشديد من الاصوات .

دواوين . وقد يؤدّي النظر الى أنهما في طريقتين مختلفتين ، وكلاهما محسن في بابه ؛ إلا أنه لم يُرَ أغبنُ من الجاحظ لنفسه ؛ ان كان واحد البلاغة في عصره ، فما باله لم يلتمس بها شرف المنزلة بشرف الصنعة ، وقد رأى ابنَ الزيّات وابراهيمَ بن عباس بلغا بها ما بلغا ، وهو يلتمس فوائدهما والجاه بهما ؟ فلا يخلو في هذا إما أن يكون مقصّراً عن الكتابة وجمعِ أدواتها ، أو يكون ساقط الهمة ، أو يكون افراطُ جحوظ عينيه قعد به عنها ، كما قصّر بي أنا فيها ثِقَل سمعي ، وبأبي القاسم ورَمُ أنفه . إذ لا بدّ للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليها عينه ، وأذنٍ ذكية تسمع منه حِسّه ، وأنفٍ نقيٍّ لا تُذَمّ أنفاسه عند مقاربته له . ولذلك استحسنوا من الكاتب أن يكون طيّب الرائحة ، سليم آلات الحواس ، نقيّ الثوب ، ولا يكونَ وَسِخ الضرس ، منقلب الشفة ، مكحّل الأظفور ، وَضِر الطوق[١] . وربما أنكر مُنكِر قولنا في شرط جمع أدوات الكتابة ، فقال : « وأيّ أداة نقصت الجاحظ ؟ » فنقول : أولُ أدوات الكاتب العقلُ ، ولا يكون كاتب غير عاقل . وقد نجد عالماً غير عاقل ، وجَدَليّاً غير حصيف ، وفقيهاً غير حليم . وقد وجدنا من ينسِب العقل الى سهل أكثر من نسبته الى الجاحظ .

---

١ الوضر : الوسخ .

لو شهد الجاحظ سهلاً يخادع للرشيد مُلكاً ، ويدبّر له حرباً ، ويعاني له اطفاء جمرة فتنةٍ ، مستضلعاً في ذلك كله بعقله ، وجَودة علمه ، لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال ، في صفة البغال ، وغير الكلام في الجُرذان وبنات وَردان[1] ، ولعلم أن بين العالم والكاتب فرقاً . »

ويغلب القصص على إنشاء أبي عامر ، فتجده في مختلف رسائله وفصوله محدثاً يسوق الخبر والنادرة ، ويحسن السرد والأداء ، ويعنى بالتحليلات النفسية ، وتصويرِ الأخلاق والأشكال ، كما في كلامه على الفَرضي والإفليلي ، وسهل بن هارون والجاحظ ، وعلى المعلمين . وأوصافه دقيقة بارعة ، سواء تناول بها المعاني الذهنية ، أو الأجسام الحيّة والجامدة ، كوصفه للنفس الروحانية في ذمه المعلمين ، مستنداً الى علم الفراسة في ذكر أشكال الذين فسدت روحانيتهم ؛ وكوصفه لدار الفرضي ، ورهطه ، ومواعينه وعقاقيره ؛ أو وصفه للحلواء وصاحبها المنهوم ؛ وهذه الرسالة مثبتة في التوابع والزوابع ، وهي تشبه المقامة في مساقها .

وأظهرُ خصائصه في الوصف أن يتتبع الموصوف بتصوير

---

١ بنات وردان ، واحدتها بنت وردان : دويبة نحو الخنفاء ذات ألوان مختلفة أكثر ما تكون في الحمامات والكنف .

ميزاته في الأعضاء والألوان ، والصوت والحركة والطباع ، حتى يجعله مُحَسّاً بارز الشخصية ، لا شبحاً غامضاً ، كما وصف الماء متأثراً ببديع الزمان ، والبرد والنار والحطب والحلواء . ويبدو في أوصافه الوضيع رفيعاً ، والقبيح جميلاً ، وانما هما رفعة الفن وجماله أضفاهما على موصوفاته الحقيرة الدميمة ، فاكتسبت بهما رُواء ، وعلت قدراً ومقاماً ، كوصفه الثعلب والبرغوث ، وهما في التوابع والزوابع ، أو وصفه للبعوضة إذ يقول :

« البعوضة مليكةٌ ، لا جيشَ لها سواها ، تحقرها عين من يراها ، تمشي الى الملك بنَدبها ، وتضرِب في بُجبوحة داره بطبلها . تؤذيه بإقبالها ، وتعرّفه بإراقة دمه ما لها . فتُعْجِز كفّه ، وترَغَم آنفه ، وتضرّج خده ، وتَفري لحمه وجلده . زمجرتها تسليمها ، ورمحها خرطومها ، تذلل صعبك ان كنت ذا قوة وعزم ، وتسفِك دمك ، وإن كنت ذا حِلْف وعسكر ضخم . تنقُض العزائم ، وهي منقوضة ، وتُعجز القويّ وهي بعوضة ، ليرينا الله عجائب قدرته ، وضعفنا عن أضعف خليقته . »

وإنشاؤه رائق الديباجة واضحها ، لا تكدّر الصنعة صفاءه لقوة طبعه ، وتجافيه عن الافراط فيها ، مع أنه يلتزم السجع أحياناً ، ويؤثر المجاز على الحقيقة ، فتكثر عنده الاستعارات والتشابيه والكنايات . وجملته رشيقة العبارة ، محكمة

التركيب ، فيها جزالة وايجاز ، على غير خشونة واخلال ؛ يُمدُّها بآيات القرآن ، وأقوال العرب وأمثالهم ؛ ويستعين عليها بمأثورات أخبارهم وأحاديثهم ، فتستكين اليه الرواسم الجاهزة ، والعناصر المستعارة ، ولذلك قال الكاتب أبو بكر أشكمياط حين وقع على فصول له : « فِقَرٌ حسان إلاّ أنه عثر عليها . »

بَيد أنه يحسن صهرها وتنزيلها ، فلا تُلفى غريبةً مُهَجَّنة ، ولا نافرة مُقلقَلة ، ولا مُجَرَّرة مُتعَبة ، فهو من النفَر الذين اذا كتبوا ارتاحت اليهم ملكة البلاغة ، وتشققت لهم أكمام البيان .

الناقد

مرّ بنا في كلام ابن حيّان أن أبا عامر ما أدرك غير الوسط في ثقافته الأدبية ، لقلة صبره على طلب العلم ، وعدم عنايته باقتناء الكتب ، فهو من أولئك الفتيان الذين وصفهم بقوله : « ولكن البطالة على الفتيان غالبة ، والسآمة عليهم مستولية . » ويخبرنا في صدر التوابع والزوابع أنه كان في أيام كتّاب الهجاء ، يحِنّ الى الأدباء ، فاتّبع الدواوين ، وجلس الى الأساتيذ ، فحصّل العلم بقليل من النظر ، ويسير من المطالعة . على أنه لم يذكر احداً من هؤلاء الأساتذة ، ولا اعتدّ بشيخ

مشهور أخذ عنه ؛ فاستهدف بذلك الى تعيير الخصوم ، والشك في علمه ومعلميه . وكأنه يردد كلامهم بلسان الجني صاحب الإفليلي حين يقول فيه : «فتى لم أعرف على مَن قرأ .» ونعلم مصير الكتب عنده ، بعد مطالعته لها ، من ذاك الحوار الذي جرى بينه وبين الجني ، قال : «فطارِحْني كتاب الخليل . قلت : هو عندي في زِنبيل . قال : فناظِرني على كتاب سيبويه . قلت : خريت الهرة عليه ، وعلى شرح ابن دَرَسْتَوَيه . »

وبيّنٌ أن أبا عامر ما أراد سوى المفاخرة بقراءة هذه الكتب ، واستغنائه عنها ، وان يكن في كلامه ما يؤيد قول ابن حيّان من أنه قليل الاعتناء باقتنائها ، قليل الرغبة في الطلب . فقد كان صاحبنا يعتمد على غرب ذاكرته ، وتوقد ذهنه ، وذكاء قلبه ، فاكتفى بيسير المطالعة ، وقليل النظر ؛ واقتصر على صدره خزانة لكتبه ، فتأتّى له قسط صالح من الأدب ، ان فاته الرسوخ فيه ، على حد قول ابن حيّان ، لم يفته الاطلاع على الشعر القديم والحديث وعلى كتب التاريخ ، ولا قصّرت به المشاركة في علوم اللغة وآداب القرآن والحديث ، ولا نــدّ عنه حسن المذاق ورهف الحسّ ، فصحّ له أن يتصدر للنقد ، وقد تهيّأت له عدته المعروفة ، مدافعاً عن نفسه ، مقاوماً خصومه ونُقّاده ،

مدلياً بآرائه في الشعر والنثر ، في الألفاظ والمعاني ، في الفن والجمال . فعدا على المعلمين والنحاة ، وهم في نظره حساد الأدباء ، لا يحسنون الكتابة والشعر ، لضعف روحانيتهم ، وسوء فهمهم ، وغلاظة أكبادهم : « سقطت اليهم كتب في البديع والنقد ، فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الايقاع ، والزمر على الألحان ، فهم يصرّفون غرائبها ، فيما يجري عندهم ، تصريف من لم يُرزَق آلة الفهم . » ومن دلائل تقصيرهم : « أنهم لا يُقدمون أن يجعلوا ما يحملون من المعرفة تصنيفاً ، ولا تغزر مادتهم أن ينشئوها تأليفاً . » فهم ينفثونها بين تلاميذهم : « ولا تروى لهم نادرة ، ولا تؤثر عنهم في البلاد شاردة . »

ومن سخره بالنحاة أنه جعل في التوابع والزوابع تابعةَ أحد الشيوخ إوزّة ، والإوزّ يُضرب به المثل في الحمق والسخافة ، وجعلها تجادله فتقول : « ما الذي تحسن ؟ قلت : ارتجال شعرٍ ، واقتضاب خطبة . قالت : ليس عن هذا أسألك . قلت : ولا بغير هذا أجاوبك . قالت : حكم الجواب أن يقع على أصل السؤال ، وأنا إنما أردت احسانَ النحو والغريب اللذين هما أصل الكلام ، ومادة البيان . » ثم يسألها : « فهل تعرفين في الخلائق أحمق من إوزّة ؟ » قالت : « لا . » قال : « فتطلّبي

عقل التجربة ، إذ لا سبيل لك الى عقل الطبيعة ؛ فاذا أحرزت منه نصيباً ، وبؤت منه بحظ ، فحينئذ ناظري في الأدب . »

ولم تكن قسوته على النحاة والمعلمين دون تعنته سائرَ الأدباء في عصره ، فانه سخط عليهم لما لقي من أذى خصومتهم وحسدهم ، وكان كغيره من الكتّاب والشعراء الذين يصعب عليهم أن ينسبوا الاحسان الى أقرانهم وأترابهم ، ولاسيما الجيل الناشىء على أثرهم ؛ يملكهم الغرور ، فيتوهمون أنهم انفردوا بالاجادة والنبوغ ، ولم يبقَ بعدهم مجال لمبدع أو مجيد . وفي كتاب له الى المؤتمن يصور هذه الجماعة التي لم يكن بريئاً منها ، أجمل تصوير ، معتدّاً بأدبه وإبداعه ، متذمراً على دهره الذي أوجده بين قوم ضاع أدبه فيهم فلم يفهموه : «لا كقوم عندنا حظهم من الفهم الحفظُ ، ومن العلم الذكرُ ، وهذا حظّ القُصّاص ، وأعلى منازل النُوّاح . فترى المُمخرِقَ منهم ، اذا قُرِىء عليه الشعر ، يزوي أنفه ، ويكسر طرفه ؛ واذا عُرضت عليه الخطبة ، يُميل شِقّه ، ويلوي شِدقه . فان تناولهما لم يُبقِ مِلحة إلا حشدها ، ولا أبقى عفصة فجّة إلا جلبها . وأصل قلّة هذا الشان وعدمِ البيان ، فسادُ الأزمنة ، ونبوّ الأمكنة ، وأنّ الفتنة نسخّ للأشياء ، من العلوم والأهواء ؛ ترى الفَهِم فيها بائر السلعة ، خاسر الصفقة ، يُلمَح بأعين الشَنَآن ،

ويُستَثقل بكل مكان . هذا دأبنا وحربنا . إنا طلبنا البيان، فأدركناه بكل لسان، والتمسنا الابداع، فأثبتنا كل معجِبٍ، وأتينا على كل مطرب، فما سقطنا على سُوقةٍ يهشّ الينا، ولا دَفَعنا إلى ملك يصبو بنا، وليت، اذ لم يكن غُنْم، ألاّ يكون غُرم! ووددِنا أنّا بَرازخ[١] لا حربٌ ولا سلم، ولا يقَظة ولا حُلم؛ كفى بذلك إنحاءً على الزمن!.»

ومن ذلك ما جاء في رسالة التوابع والزوابع، اذ يقول له صاحب الجاحظ: «إنك لخطيب، وحائك للكلام مجيد، لولا أنك مغرى بالسجع، فكلامك نظم لا نثر.» فيجيبه: «ليس هذا، أعزّك الله، مني جهلًا بأمر السجع، وما في المماثلة والمقابلة من فضل، ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام، ودُهيت بغباوة أهل الزمان، وبالحَرَا أن أُحرّكهم بالازدواج.» فيقول له الجني: «فكيف كلامهم بينهم؟» فيقول: «ليس لسيبويه فيه عمل، ولا للفراهيدي اليه طريق، ولا للبيان عليه سِمة، إنما هي لُكنة أعجمية، يؤدّون بها المعاني تأدية المَجوس والنَبط.» فيصيح تابع الجاحظ: «إنّا لله! ذهبت العرب وكلامها! ارمهم، يا هذا، بسجع الكُهّان، فعسى أن ينفعك عندهم، ويُطير لك ذكراً فيهم!»

---

١ البرازخ، جمع برزخ: وهو الحاجز بين الشيئين.

وخصّ أبا القاسم الافليلي بنقد موجع تعمّد فيه إظهار أوصافه على ألسنة الصبيان ليخرجه من حلقة الأدباء :

« وهو أنجل أهل الأرض لا محالة . ولم يقصّر بنا عنده إلا توقيرنا لثَغامته[1] ، وهو يرى أن بعض صبياننا قد أفلقوه حين قالوا : « ليست مِشيته مِشيةَ أديب ، ولا وجهه وجهَ أريب ، ولا جِلسته جلسةَ عالم ، ولا أنفه أنفَ كاتب ، ولا نغمته نغمة شاعر . »

وفي استناده الى الأوصاف يتكلم على تأثير النفس في الانشاء ، فمن كانت نفسه مستولية على جسمه ، كان مطبوعاً روحانياً يُطلع صور المعاني في أجمل هيئاتها ؛ ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من أصل تركيبه ، كان ما يُطلع من الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في التمام والكمال .

ولتركيب الأعضاء ، كما يقتضي علم الفِراسة ، تأثير في صلاح الآلة الروحانية وفسادها ؛ ففساد الآلات الظاهرة في الجسم يعين على فساد الآلة القابلة الروحانية ، والخادِمة لآلات الفهم : منها فَرطحة الرأس وتسفيطه ، ونتوء القَمَحدُوة ، والتواء الشِدق ، وخزَر العين ، وغِلَظ الأنف ، وانزواء الأرنبة .

---

[1] الثغامة : نبتة بيضاء يكنى بها عن الشيب .

وغير خفيٍّ ما في هذه الأحكام من غموض ومجازفة لا يصح الركون اليهما ؛ إلاّ أنها خطوة محمودة خطاها ابن شهيد في النقد الأدبي ، مؤلفاً في طريقه بين انشاء الكاتب وحالات نفسه وصور أعضائه . «فإصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب ، واستيفاء مسائل النحو ، بل بالطبع ، مع وزنه من هذين ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه . » فمن كان طبعه روحانياً استولت نفسه على بدنه ، وجاء : «بصور رائقة من الكلام تملأ القلوب ، وتشغف النفوس ، فاذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده ، وللجمال تركيبها أُساً لم تعرفه ، وهذا هو الغريب أن يتركب الحُسن من غير حُسن كقول امرىء القيس :

ألا عِمْ صباحاً أيها الطلل البالي

وقوله :

تنوّرتُها من أذرِعاتٍ ، وأهلُها
بيَثرِبَ ، أدنى دارِها نظَرٌ عالِ

فان هذه الديباجة اذا تَطلبتَ لها أصلاً من غريب معنى لم تجده . »

فأبو عامر يلمس هنا نظرية الشعر الصافي ، بما فيه من توقيع

وتركيب وجمال غير محدود ، ويعزوه الى صفاء النفس واستيلائها على الجنان ، مع الاحتفاظ بميزانَي معرفة الغريب ، واستيفاء مسائل النحو . على أن هذا لا يعني أنه يريد تطهير الشعر الصافي من المعنى والعاطفة والصورة كالأب بريمون وأصحابه دعاة هذا المذهب الحديث ؛ فقد كان ، على اجلاله لروعة الديباجة ، يجدها بعض الأحيان خداعة للناقد ، فيوصيه أن يحترس منها في حكمه على الشاعر ، ولا ينساق بظواهرها ، فليس الشعر باللفظ وحده ، وانما يستحق الصناعة من يتقحّم بحور البيان ، ويتعمد كرائم المعاني والكلام ، وينطق بالفصل ، ويركب متون الجِدّ ، ويطلب الأشياء النادرة والسائرة ، وينظِم من الحكمة ما يبقى بعد موته ، متصرّفاً تصرُّفَ الملح في الطعام ، متلوّناً في الأغراض والصور ، تلوُّنَ أبي براقش[1] .

ويرى أن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلمات ؛ فاذا جاور النسيبُ النسيبَ ، ومازج القريبُ القريبَ ، طابت الألفة ، وحسنت الصُحبة . واذا رُكّبت صور الكلام ، حسنت المناظر ، وطابت المخابر . وللعذوبة اذا طُلِبت ، والفصاحة اذا التُمِست ، قوانين من الكلام ، من طلب بها

١ أبو براقش : طائر صغير بري كالقنفذ ، أعلى ريشه أغبر ، وأوسطه احمر ، وأسفله أسود ، فاذا انتفش تغير لونه ألواناً شتى .

أدرك ، ومن نكتب عنها قصّر . وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام ، فكذلك يجب أن تختار مليح النحو ، وفصيح الغريب ، وتهرب من قبيحه .

وأهل صناعة الكلام ثلاث طبقات متباينون في المنزلة ، متفاضلون في شرف المرتبة ، على مقدار احسانهم وتصرفهم . فمنهم الذي ينظم الأوصاف ويخترع المعاني ، ويحرز جيّد التأليف ، إلا أنه يجري في الأبيات القليلة والمآخذ القريبة ، فاذا كثرت عليه وازدحمت ، وقف وانفلّ وتلاشى واضمحل . ومنهم الكارع في بحر الغزارة ، يمر مرّ السيل في اندفاعه ، لا يشكو الفشل ، ولا يكلّ على طول العمل ، فذلك الألسَنُ يوم حرب الكلام ، لا تخطىء ضربته ، ولا تصاب غِرّته . ومنهم من يتجافى عن الكلام ، ويروغ عن المقال ، فاذا مُنِي به أخذ بأطراف المحاسن ، وشارك في أنحاء من الصنعة ، وجُلُّ ما عنده تلفيقٌ وحيلة ، وبذلك يصاحب الأيام ، ويجاري أبناء الزمان . ومن خرج عن هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان ، ولا يدخل في أهل صناعة الكلام .

وبحث في الأساليب واختلافها باختلاف العصور والأمم فقال : «وكما أن لكل مقام مقالاً ، فكذلك لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من

الخطابة ، وضرب من البلاغة لا يوافقها غيره ، ولا تَهشُّ لسواه . وكما أن للدنيا دولاً ، فكذلك للكلام نُقَلٌ وتغايُرٌ في العادة . » ولذلك أنكر على معاصريه تصديرهم قصائد المدح بذكر عرائس الشعر جرياً على الأسلوب القديم ، وأوصى أهل الصناعة ، اذا اعتمدوا وصف حالة ، أن يستوفوا جميعها ، ولا يخرجوا عنها ، فذلك أبهى لكلامهم ، وأدلّ على أن الكلام لهم ومن تأليفهم . وعاب على عبد الحميد تأثُّره بلغة الأعراب ، وروح البداوة ، فخاطب صاحبه الجني في رسالة التوابع والزوابع بقوله : « اني لأرى من دم اليربوع بكفَّيك ، وألمحُ كَشْى الضبّ على ماضِغَيك ! »

ولم يغفل عن السرقات الأدبية ، ومن حقه ألا ينساها ، وهو من المتهَمين بها ، فأجازها للشعراء ، على شرطٍ وضعه ، وقانونٍ رسمه ، قال في رسالة الجن : « اذا اعتمدت معنى قد سبقك اليه غيرك ، فأحسِنَ تركيبه ، وأرَقَّ حاشيته ، فاضرِبْ عنه جملة ، وإن لم يكن بدٌّ ففي غير العَروض التي تَقدّم اليها ذلك المحسن ، لتنشط طبيعتك ، وتقوى مُنّتُك . » وأدرك على عمر بن أبي ربيعة توسّمه بيت امرىء القيس :

سموتُ اليها بعدما نام أهلها ،
سموَّ حَباب الماء حالاً على حالِ

فقال : «ألا ترى عمر بن أبي ربيعة ، وهو من أطبع الناس ، حين رام الدنو منه والإلمام به ، كيف افتضح في قوله :

ونفّضتُ عنّي النومَ ، أقبلتُ مِشْيةَ
الحُباب ، وركني ، خَشْيةَ القوم ، أزورُ

ولو ركب غير عَروضه لخلص .»

ويستشهد على صحة زعمه بقول اسماعيل بن يسار النَسائي :

أقبلتُ ، والوَطء خفيف ، كما
ينساب من مَكمنِهِ الأرقَمُ

وأنه عندما حاول النظر اليه ، خالفه في العَروض ، فابتعد عنه ، ولم يفتضح مثل ابن أبي ربيعة ، قال :

أدبُّ إليه دبيب الكرى ،
وأسمو اليـه سموّ النَفَسْ

ولسنا على رأي أبي عامر في هذه القضية ، فالسرقات الشعرية لا يخفيها اختلاف العَروض ، ولا يشفع شيء لمستحلّها ، إلاّ اذا ولّد منها صوراً أو معـاني جديدة يحق له أن يدعيهـا كما قال أبو نواس :

دع عنك لومي ، فان اللوم اغراء ،
وداوني بالتي كانت هي الداء

وهو مأخوذ من قول الأعشى :

وكأسٍ شربتُ على لذّة ،
وأخرى تداويت منها بها

فزاد عليه المثل المولّد في صدر البيت ، وجعل مداواة الداء بالداء مطلقة لا مقيدة ؛ فنُسب المعنى اليه ، واشتهر بيته على أفواه المنشدين ، وخمل بيت أبي بصير . ونرى أن عمر أقرب في صورته الشعرية الى معاصره اسماعيل بن يسار منه الى امرىء القيس ، وان شابه الشاعر الكندي بالعَروض ، ولطف الوصول الى الحاجة ، كما أن أبا عامر يجاور في صورته الشاعر الجاهلي أكثر من مجاورته اسماعيل بن يسار .

ولا يخلو نقده من سخر لطيف ، أو تهكّم لاذع ، شأنه في بيت أبي نواس :

سأشكو الى الفضل بن يحيى بن خالد
هواكِ ، لعل الفضل يجمع بيننا

قال : «فهذا من الكلام الغث ، واللفظ الرث ، الذي

لو رامه حمار الكُسَاح[1] لأدركه . »

ونظم في رسالة التوابع والزوابع أبياتاً في الغزل على لسان بغل ، وأخرى مثلها على لسان حمار ؛ فلما عُرضت عليه للمفاضلة بين الشاعرين ، وسمع قول الحمار :

وما نلتُ منها نائلاً ، غير أنني ،
اذا هي راثت ، رُثتُ حيث تروثُ

قال : « والله ، ان للروث رائحة كريهة ، وقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم في الشعر . » وأنف الناقة هو تابع أبي القاسم الافليلي .

فأبو عامر من خيرة النُقّاد في العصر القديم ، وله نظرات جريئة يُحمد عليها ، وإنْ لمْ تسلم من الغمز والتجريح ، وفيها ما يوافق المذاهب الحديثة في زماننا كبحثه في تأثير الألفاظ ، والجمال الذي لا يوصف ؛ وسيمرّ بنا شيء غير قليل من نقده وسخره في رسالة التوابع والزوابع .

---

١ الكساح : داء للابل ، أو هو الكساحة أي تعطل القوى في اليدين والرجلين ، وأكثر ما يستعمل في الرجلين .

رسالة

التوابع والزوابع

نسختها

لم يُعثر الى الآن على مخطوطة لرسالة التوابع والزوابع ، وانما بلغ الينا منها ما أثبته أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني الأندلسي في القسم الأول من كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» ، فرأينا أن نقسمه ، بحسب أغراضه ، الى مدخل وأربعة فصول ، وجعلنا عنوان الفصل الأول : توابع الشعراء ، والثاني : توابع الكتّاب ، والثالث : نُقّاد الجن ، والرابع : حيوان الجن . وهي عناوين تقبل الزيادة بعد العثور على نسخة كاملة لهذه الرسالة الحسناء .

والقسم الأول من كتاب الذخيرة طبع في مجلدين بالقاهرة ، أولهما سنة ١٩٣٩ ، وتولت نشره كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول ، وفيه فصول التوابع والزوابع ، فاعتمدنا عليه في اخراجها كتاباً على حدة .

ويخبرنا الدكتور طه حسين في مقدمة الكتاب أن الجامعة

كلفت المستشرق لاوي بروفنسال مع طائفة من شباب قسم اللغة العربية في كلية الآداب أن يهيئوا نص كتاب الذخيرة للطبع ، معارضين ما اجتمع لهم من النسخ ، مصحّحين ما لا بدّ من تصحيحه . ثم ألفت لجنة من أساتذة الكلية : طه حسين ، أحمد أمين ، مصطفى عبد الرازق ، عبد الحميد العبادي ، عبد الوهاب عزام ، لاوي بروفنسال ، للنظر في ما أعدّت اللجنة الاولى من النص تقرأه منفردة ومجتمعة ، حتى اذا أقرته ، أذنت بطبعه . وعلى هذا النحو أُخرج القسم الاول من الذخيرة ، مصحّحاً ومحرّكاً ومطبوعاً طبعاً جميلاً .

على أننا ، عندما حملنا النفس على نشر رسالة التوابع والزوابع ، وجدنا أن اللجنة لم تُعنَ بشرح الألفاظ الغريبة والاصطلاحات الأندلسية ، بل أرجأت ذلك الى أن تنتهي من نشر بقية الأقسام . فتولينا شرح الغريب من اللفظ ، وفتح المغلق من المعنى ، وتعريف أسماء الأعلام ، وايضاح التلميحات التاريخية ، تسهيلاً على عامة القراء ، وتخفيفاً عن خاصتهم . ووقعنا على خطإٍ غير قليل في الشكل ، يحسن بنا أن نرد معظمه على الطابع ، فأصلحناه وقوّمنا منآده ، دفعاً للالتباس والتشويه .

ولم يقف عملنا عند هذا الحد في اخراج هذه الرسالة ، فان

الجهد الذي بذلته اللجنة في معارضة نسخ الذخيرة ، وتصحيح النص ، لم يبلغ الى ما أرادته من رد الكتاب الى الصواب ، كما يقول الدكتور طه حسين في المقدمة . وهذا ما تبيّناه في اثناء دراستنا لآثار ابن شهيد ، إذ عرضت لنا ألفاظ مغلوط فيها أو محرفة ، عجبنا كيف جاوزتها اللجنة دون أن تدقق في معانيها ، أو تراجعها في مظانها ، ورأينا أن نستدرك ما فاتها . فمما صحّحناه بتتبع المعنى ، وتقريب صور الألفاظ بعضها الى بعض ، قول أبي عامر في وصف الصيد :

نُمَسِّح بالجَودان منه أكُفَّنا ، اذا ما اقتنصنا منه غيرَ قليلِ

والجودان لا معنى له ، وإنما أراد الحَوذان ، وهو نبت نَورُه أصفر ، وقد وَصف ، قبل هذا البيت ، أبكار النَّور ، وشبهها برداء عروس ، وهنا يذكر تمسيح الأيدي بها من لحم الطرائد . ومثل ذلك قوله : « فضرب زهير الأدهم بالسوط ، فسار بنا في قَنْته . » ولا وجه للقنت يُردُّ اليه الكلام ، فضلاً عن إشكال استعماله بمعنى القنوت ، وصوابه القَنَن ، أي سَنَن الطريق ونهجه .

ومما صحّحناه بالرجوع الى كتب الأدب ودواوين الشعراء ، قول طرفة :

لسُعدى بجِزّان الشَدِيف طلولُ

والشديف لا ذكر له بين أسماء المواضع ، وهو في ديوان طرفة الشُرَيف بالراء المهملة والتصغير ؛ ذكر صاحب القاموس أنه أعلى جبل ببلاد العرب ، وأنه قد صعده ؛ وذكره ياقوت في معجم البلدان ، وقال إنه يُطلق أيضاً على ماء لبني نُمير بنجد أو وادٍ بنجد ، وعلى حصن من حصون زبيد باليمن .

ومنه قول أبي نواس :

لمن دِمَنٌ تزداد طيبَ نسيمِ،
على طيبِ ما أقوَت،وحسنَ رسومِ

ووجه الكلام : « على طول ما أقوت » وهكذا رواية الديوان .

وقال أبو عامر بن شهيد :

أصَفِيحٌ شِيمَ ، أم برقٌ بدا ،
أم سنا المحبوب أورَى أزْنُدَا ؟

وصوابه ، كما في مطمح الأنفس ، أصباحٌ شِيمَ . وكذلك قوله في القصيدة نفسها :

قلتُ : هَبْ لي ، يا حبيبي ، قبلةً ،
تَشفِ من غَمّك تبريحَ الصّدى

ولا معنى لغمك هنا ، وإنما هي عمّك ، كما في مطمح الأنفس .

وجاء في رسالة الحلواء : « فأمرت الحلواني بابتياع أرطال منها . » ورواية يتيمة الدهر : « فأمرت الغلام . » وهي الصواب .

ومرت بنا ألفاظ يستقيم بها المعنى على اختلاف روايتها ، مثل قوله : « أعذبُ من ألسِنة الأحبة . » فآثرنا رواية يتيمة الدهر ، وهي : « أعذب من ريق الأحبة . » وألفاظ أخذناها على وجه التقريب ، ولم ينشرح لها صدرنا ، كما في قوله : « وتحركتُ لهم حركة مشولم . » وهو ، كما يظهر ، من اصطلاح أهل المغرب ، وليس له ذكر في المعجمات إلاّ معجم دوزي ، فانه أثبت لفظة مَشْولين ، وقال إن معناها فتيان ، وان واحدها مَشْوَلُ ، كمَقعد ، على خلاف القياس . فلعل في مشولم تحريفاً ، والمراد مشولين ، لأن المعنى يرتاح اليها بعض الشيء . أو لعلها شَوْلم ، إشارة الى الرقية التي خدع الغني بها اللصوص الذين جاؤوا بيته ليلاً ؛ وقصتهم في باب برزويه من كليلة ودمنة .

وكذلك لفظة شوابير ، في قوله يصف الحلواء : « مُجاجة الزنابير ، أجريَت على شوابير . » فان كتب اللغة لم تذكرها ،

وهي حضرية مولّدة ، وانما ذكرها دوزي في معجمه ، وأورد لها معنى لا يطابقها في هذا الموضع ، فشرحناها بالاستناد الى بعض تعريفه لها ، ثم الى ما نعلمه عنها من اصطلاح العامة عندنا ، فقلنا : هي قِطَع لها شكل الزاوية ، كما يُرى في تقطيع الحلواء .

فالجهود المحمودة التي بذلتها لجنة كلية الآداب في مصر لتصحيح نص الذخيرة ، لم تصرف عنا مشقة البحث والتنقيب ، والشرح والتخريج ، لنشر رسالة التوابع والزوابع مصحّحة منقحة ، مذلّلة العِقاب ، قريبة التناول .

تاريخها

ليس في أخبار ابن شهيد ذكر للسنة التي وضع فيها رسالة التوابع والزوابع ؛ غير أن المستشرق بروكلمن يزعم أنها صُنّفت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة . ومعلوم أن أبا العلاء ألّف رسالته الالهية في اثناء عزلته سنة ٤٢٤ ﻫ (١٠٣٢ م) فيكون أبو عامر قد أنشأ التوابع والزوابع سنة ٤٠٤ ﻫ (١٠١٣ م) على رأي العالم الالماني .

فأما أن تكون رسالة ابن شهيد كُتبت قبل رسالة المعري فهذا لا إشكال فيه ، لأن أبا عامر توفي سنة ٤٢٦ ﻫ أي بعد ظهور رسالة الغفران بنحو سنتين ؛ وكان قد اعتلّ قبلها بضع

سنوات ، وغلب عليه الفالج في مستهل ذي القعدة من سنة ٤٢٥ مدة سبعة أشهر الى أن مات في آخر جمادى الأولى من السنة التالية . ومع أنه لم يعطّل لسانه ، فينقطع عن قول الشعر ، إلاّ أن ما كان ينتابه من الأوجاع العظيمة ، وضغط الأنفاس ، وعدم الصبر ، خليق بأن يمنعه عن القيام بعمل أدبي طويل النفس كرسالة التوابع والزوابع . ولكن الإشكال في تأريخ السنة التي أنشئت فيها ، والمستشرق بروكلمن لم يدلنا على أي شيء اعتمد في قوله إنها وُضعت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة . فرأينا أن نتقرّى هذا البحث في فصولها التي بين أيدينا ، لعلنا نصل الى نتيجة مرضية ولو قليلاً .

فأول ما يبدو لنا في مدخلها تبجح أبي عامر في خطابه لأبي بكر بن حزم ، لأنه «أوتي الحُكم صبيّاً ، وهزّ بجذع نخلة الكلام ، فاسّاقطَ عليه رُطَباً جنيّاً .» فنعلم أن صاحبنا كان فتى عندما توفر على تصنيف رسالته . ونجد هذه الاشارة الى شبابه في قول تابع المتنبي عندما سمع شعره : «ان امتدّ به طلَق العُمُر ، فلا بدّ أن ينفث بدُرر ، وما أُراه الا سيُحتَضَر ، بين قريحة كالجمر ، وهمّةٍ تضع أخمَصه على مَفرِق البدر .» ثم في حديثه مع بغلة أبي عيسى : «فقالت : ما أبقت الأيام منك ؟ قلت : كما ترين . قالت : شبّ عمرو عن الطوق !»

فهذه الاشارات الى صباه أو الى شبابه أو الى مجاوزته سن الحداثة ، لا تأذن لنا بأن نجعل رسالة التوابع والزوابع وليدة أواخر حياته ، لأنها من دلائل فتوّته ؛ فعلينا أن نسأل فصول الكتاب عن السنة التي وُلدت فيها ، فقد تكون أهدى لنا من كلام المؤرخين .

ومن حسن الحظ أن أبا عامر ضمّن رسالته هذه نُتَفاً من أخباره وشؤونه ، وأورد فيها طائفة من أشعاره ، وذكر أشخاصاً ، منهم قضوا نحبهم قبل تأليفها ، ومنهم كانوا أحياء . على أنه لم يورد خبراً يتصل بكهولته ، ولا شعراً قاله في مرضه أو بعد فتور شبابه . فمن أخباره ما يتعلق بحداثته وطلبه العلم : « فاتّبعت الدواوين ، وجلست الى الأساتيذ ، فنبض لي عرق الفهم ، ودرّ لي شريان العلم بمواد روحانية . » ومنها ما يتناول خصومه الذين اتهموا شعره وطعنوا عليه عند المستعين ؛ وكانت خلافته من سنة ٤٠٣ هـ الى سنة ٤٠٧ هـ .

بيدَ أن الرسالة كُتبت بعد هذا العهد ، كما تدل الأشعار المدونة فيها ، على اختلاف أغراضها . فقصيدته التي قالها ، وهو في سجن العلويين ، يصح أن تكون في خلافة علي بن حمود (٤٠٧ — ٤٠٨) ، وهذا ما نرجحه ، لما عُرف به من الشدة والتنكيل والمصادرة ، واعتقال الذين كانوا في خدمة المستعين .

أو في خلافة أخيه القاسم التي امتدَّت الى أن جاء يحيى بن علي ينـازع عمه المُلك سنة ٤١٢ هـ . فاستولى على قرطبة ، وتلقب بالمعتلي ؛ واتصل بـه أبو عامر . غير أن القاسم عـاد الى قرطبة وملكها سنة ٤١٣ هـ وهرب يحيى الى مـالقة ، فربمـا سُجن ابن شهيد في تلك السنة لحظوته عنده ، وكثرة مدائحه فيه . واذا لم يصحّ ذلك ، وصحّ سجنه في زمن علي ، فبعض مدحه ليحيى مرويّ في التوابع والزوابع مما يدل على أنهـا وُضعت بعد سنة ٤١٢ . وفيهـا أيضاً رثاؤه لأبي عبيدة حسان بن مالك ؛ وهذا استوزره المستظهر عبـد الرحمن الخـامس سنة ٤١٤ هـ ، كما يخبرنا الفتح بن خاقـان في « مطمح الأنفس » ولكنه لم يذكر سنة وفاته . وكذلك قصيدته التي يمدح بهـا صديقه أبا محمد بن حزم ، ويطري تأويلاته الشافعية :

فسلْ من التأويلِ فيها مهنّداً ،
أخو شافعيّات ، كريمُ العناصرِ

وابن حزم كان يميل الى المذهب الشافعي في عنفوان شبابه ، فتعصّب له وناضل عنه ، حتى وُسِم به ونُسب اليه . ولما سقطت الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) هجر قريته منْت ليشَم من أعمال لَبْلَة (Niebla) وشخص الى المريّة (Alméria) فراراً من الحرب الأهلية ، وعمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة .

ثم استقامت حـاله في خلافة المستعين ، لمغالاته في التشيع لبني أمية ، حتى اذا قُتـل المستعين ، اعتُقِل وحُبس بضعة أشهر .

وذهب بعدها الى بلنسية ، فاتصل بالمرتضى عبد الرحمن الرابـع الخليفة الأموي ، الى أن قُتِل سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م) فقفـل الى بلده . وفي سنة ٤١٤ هـ استوزره المستظهر عبـد الرحمن الخامس مدة خـلافته القصيرة . فمدحُ ابن شهيد له بشافعيّـاته ينبغي أن يكون خلال تلك السنوات ، لأن ابن حزم عدل عن المذهب الشافعي بعد ذياده العنيف عنـه ، فنراه في شاطبة سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) يصنف كتاب طوق الحمـامة ، وكتاب الفِصَل ، في الملل والأهواء والنِحَل ، ويتبع مذهب الظاهرية ، آخذاً برأي داود بن علي وأتبـاعه ، منحرفاً عن غيره من المذاهب .

فالعدد الذي اعتمده المستشرق بروكلمن بيّـن الغلط ، لأن القصائد التي أشرنا اليها ، وذكرنا أنها وردت في رسالة التوابع والزوابع ، لا تسمح لنـا بأن نجعل ولادتها سنة ٤٠٤ هـ ؛ فهي انما أبصرَت النور بعد سنة ٤١٤ هـ ، ولم تتقدم رسـالة الغفران بعشرين سنة ، بل ، على مـا بدا لنا ، بتسع سنوات أو أقل ، فقد كتبها أبو عامر في قوة شبابه بعدما نيّـف على الثلاثين .

عرفنا أن أبا عامر كان كثير الخصوم والحسّاد ، ولقي منهم عنتاً وأذية وضيماً لم يصبر له ، فانبرى يواقعهم ويناضلهم ، ويتنقص أدبهم ، ويبسط آراءه في المنظوم والمنثور ، والفن والجمال . فرسالة التوابع والزوابع لا تعدو هذا الغرض الذي يرمي اليه ، وهو الطعن على أنداده ومنافسيه من الوزراء والأدباء ، وأهل السياسة والقلم ؛ ثم المنافحة عن أدبه بالرد على غمزات نُقّاده ؛ ثم اظهار محاسنه وفضائله في المتقدمين والمتأخرين .

فقد عرض لمغتابيه عند المستعين ، منددًا بضعفهم وعجزهم عن لحاقه ؛ وألحّ بالازراء على أبي القاسم الافليلي ، فنفس عليه بعلمه ومعرفته ، ودعاه الى مباراته بالوصف شعراً ونثراً . وسخر بأدباء بلده ، ونسب الغباوة الى أهل زمانه ، وعرّاهم من صحة اللغة ، وحسن البيان . وجعل الاوزة الحمقاء تابعة لشيخ من النحاة ؛ وقال لبغلة أبي عيسى : « من اخوانك من بلغ الامارة ، وانتهى الى الوزارة . »

وما تجشم الرحلة الأدبية الى وادي عبقر الا ليلقى توابع الشعراء والكتّاب ، وينال منهم اجازة النظم والخطابة ؛

فأجازه امرؤ القيس ، وطرفة ، وقيس بن الخطيم ، وأبو تمام ، والبحتري ، وأبو نواس ، وأبو الطيّب ، وعبد الحميد ، والجاحظ ، وبديع الزمان ، وسواهم . وأسمعهم من أشعاره ورسائله ، وفاخرهم بإعراق بيته في الشعر ، ونقض أقوالهم في أدبه ، وإنما هي أقوال نُقّاده ، وعارضهم في قصائدهم وأوصافهم ، فقال أبو نواس : « هذا شيء لم نُلهَمه نحن . » وقال أبو الطيّب : « ان امتدّ به طلَق العُمُر ، فسوف ينفث بدرر . » وقال عبد الحميد والجاحظ : « اذهب فانك شاعر وخطيب . » وضرب صاحب بديع الزمان الأرض برجله ، عندما سمع منه وصف الماء ، فانفرجت له ، فغاب فيها عن العيان ، لما لحقه من الخزي والانكسار .

فكيفما سرنا في رسالة التوابع والزوابع نجد أبا عامر شديد الإنحاء على خصمائه ، شديد المباهاة بأدبه ونبوغه ، يناقش الشرق والغرب ، والقديم والمحدَث ، ويدفع حملات النُقّاد والمتعنتين ، ولا يرضى أن يُجاز إلا شاعراً وخطيباً على السواء .

أقسامها

قسمنا رسالة التوابع والزوابع الى مدخل وأربعة فصول ، ونشرع الآن في تعريف هذه الأقسام تسهيلاً لجمهرة القراء .

المدخل – زهير بن نمير

يتحدث أبو عامر في مدخل رسالته الى أبي بكر بن حزم ، فيذكر له كيف تعلم ونبض له عرق الفهم ، بقليل من المطالعة . ثم ينتقل الى خبر حبيب له مات ، فأخذ في رثائه ، فأرتج عليه ، واذا بجنيّ اسمه زهير بن نُمَير يتصوّر له ، ويلقي اليه بتتمة الشعر ، رغبة في اصطفائه ، كما تصطفي التوابع خلانها ، فتتأكد بينهما الصحبة ؛ فأصبح ، كلما سُدّت بوجهه مذاهب الكلام ، يدعو تابعه بأبيات لقنها عنه ، فيمثل له ، ويوحي اليه .

الفصل الأول – توابع الشعراء

يسأل أبو عامر صاحبه أن يزيره أرض التوابع والزوابع ، فيطير به على متن جواده ، حتى ينزل وادي الأرواح ، فيزور صاحب امرىء القيس ، وصاحب طرفة من الجاهليين ، ويرغب في التحول الى العبّاسيين مبتدئاً بتابع أبي تمام ، فيلقى في طريقه شيطان قيس بن الخطيم من شعراء الجاهلية . ثم يصير الى توابع الطائيّين وشاعر الخمرة ؛ وينتهي به المطاف عند « خاتمة القوم » صاحب أبي الطيّب المتنبي . وفي زياراته هذه يساجل الشعراء ويعارضهم ويذاكرهم ، ويأخذ الاجازة منهم .

الفصل الثاني – توابع الكتاب

ويرغب أبو عامر في لقاء الكتّاب ، ويدعوهم الخطباء ، ولولا شوقه الى الشعراء ، لكانوا عنده أولى بالتقديم . فيسير اليهم مع زهير ، وقد اجتمعوا في بعض المروج للمذاكرة ، وفيهم تابع الجاحظ وتابع عبد الحميد . فيأخذان عليه شغفه بالسجع ، فيدافع عن نفسه ، فيجد من صاحب عبدالحميد عنفاً ، فيقابله بالطعن على بداوة أسلوبه ، فيبتسم له ويباسطه . ثم يقرأ عليهما رسالة الحلواء ، فيضحكان منها ، ويستجسنانها . ويشكو اليهما أمر حساده ، عند المستعين ، وفيهم أبو القاسم الإفليلي ، فيتصدى له تابعه بالنقد والتجريح ، فيردُّ عليه ، وينفسه بأوصافه . واذا بصاحب بديع الزمان يدخل بينهما ، فيعارضه أبو عامر في وصف الماء ، حتى يخجله . ثم يجيزه صاحبا الجاحظ وعبد الحميد شاعراً وخطيباً .

الفصل الثالث – نقاد الجن

يحضر أبو عامر وتابعه مجلس أدب من مجالس الجن ، فيدور الكلام على بيت للنابغة تداول الشعراء معناه من بعده ، ولم يلحقوه ، وينشد بعض الجن أبياتاً في هذا المعنى ، يتسامى بها

على النابغة ، وانما هي من نظم أبي عامر . ثم يبحث الجني في الطريقة التي نحسن بها سرقة الشعر دون أن يفتضح صاحبها ؛ ويسأل أبا عامر أن يُسمعه كلاماً يرعى تِلاع الفصاحة ككلام أبي الطيّب ، فينشده أمثلة من قصائده ، ويُدلّ بأشعار أجداده وأبيه وعمه وأخيه .

الفصل الرابع – حيوان الجن

يسير أبو عامر وزهير في أرض التوابع والزوابع ، فيشرفان على نادٍ لحمير الجن وبغالهم ، وقد وقع الخلاف بينها في شعرين لحمار وبغل من عشاقها ، فتدعوه للحكم فيهما ، ويعرف من بينهن بغلة أبي عيسى ، فيتحدث اليها ، ويتذكران دار الانس . ثم تعترضه إوزة في بركة ماء ، هي تابعة لبعض الشيوخ ، تريد مناظرته في النحو والغريب ، فيردعها ، ويذكّرها بسخفها وحمقها ، وينتهي عندها ما بلغ الينا من رسالة التوابع والزوابع .

هي ورسالة الغفران

أفضى بنا البحث في تاريخ رسالة التوابع والزوابع الى الاستدلال على أنها تقدمت رسالة الغفران ببضع سنوات ؛ فغير

مستنكر أن يكون أبو العلاء قد اطلع عليها ، فنبَّهت فيه فكرة الرحلة السماوية ، ثم جاءت رسالة ابن القارح تدعوه الى تصنيفها . ولا يدفع هذا الرأيَ بُعدُ الشقة بين قرطبة والمعرة ، وقلة انتشار الأدب الأندلسي في الشرق ؛ فان ابن شُهيد لم يكن من المغمورين عند المشارِقة ، على تعصبهم لأدبهم ، واستخفافهم بأدب المغاربة . فقد روى أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر طائفة صالحة من كلامه . والثعالبي وُلد سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م) أي قبل ولادة أبي عامر باثنتين وثلاثين سنة ؛ وتوفي سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) أي بعد ثلاث سنوات من وفاة أبي عامر ؛ فهو معاصر له ولأبي العلاء . وصنَّف كتابه يتيمة الدهر ، في صيغته الأولى ، سنة ٣٨٤هـ (٩٤٤م) والعمر في اقباله ، والشباب بمائه ، كما يقول في مقدمته . ثم أعاد النظر فيه ، فلم ترضَ نفسه عنه ، فاستأنف العمل ، وما زال يبني وينقض ، ويزيد وينقص ، ويمحو ويثبت ، حتى أخرج نسخته الأخيرة من بين النسخ الكثيرة ، ولم يتم له هذا الأمر إلاّ بعدما أدرك عصر السن والحنكة ، فتسنى له أن يدوّن من آثار ابن شهيد بعض مدائحه في يحيى المعتلي سنة ٤١٢هـ ، وشيئاً من رثائه لأبي عبيدة بن مالك وزير المستظهر سنة ٤١٤هـ ، وأوصافه للحلواء ، والبرغوث والثعلب ، وهي واردة في رسالة التوابع والزوابع . وإذا كان أبو عامر قد أنشأها قبل تصنيف رسالته هذه ، فإن

وصفه للماء ، ورواه الثعالبي ، هو من صُلب التوابع والزوابع كما نرجح ، وضعه خصوصاً لينافس بـه صاحب بديع الزمان ؛ فتكون هذه الرسالة قد هاجرت الى المشرق ، في حياة مؤلفها ، مع غيرها من آثاره ، وأخذ منها أبو منصور الى يتيمته . فمن المعقول أن يقف عليها أبو العلاء المعري فيتأثر بها ، وهو ، على ما نعرفه ، مغرى بالقراءة ، كلِف بالدرس والاطلاع .

ولكن لا نزعم أنه انسحب على أذيالها في رسالة الغفران ، فان الشبه الذي نجده بين الرسالتين لا يحرم أبا العلاء حق التأليف ، وكلتاهما تسير في طريقٍ معبَّدٍ لها ، وترمي الى هدف مخصوص بها . فاذا قصد الكاتبان عالم الأرواح في قصتيهما ، فطريق أبي عامر قادته الى وادي الجن ، وطريق المعري قادته الى الآخرة . واذا توافقا في الطواف على الشعراء ، وعقد مجالس الأدب والمناظرة والنقد ، فان أبا عامر توخى هدم خصومه وحساده ، وبناء فضله ونبوغه ، وأما أبو العلاء فقد شاء أن يعبث بعقيدة الغفران ، ويتهكم أهلَ عصره في تصورهم الجنّةَ حافلة بالملذات المحسوسة ، والنارَ مشبعةً بألوان العذاب والتنكيل ، وان لم يفته الادلال بعلمه وسعة اطلاعه .

ووجّه المعري رسالته الى رجل يُعرَف بابن القارح ، كما وجّه ابن شهيد رسالته الى رجل يدعى أبا بكر بن حزم ؛ إلاّ

أن الكاتب الشامي جعل صاحبه بطلاً لقصته ، تدور عليه حوادثها ؛ ولم يذكر الكاتب الأندلسي صاحبه إلاّ في بدء رسالته ، ثم سكت عنه ، وأقام من شخصه بطلاً للقصة يتعهد حوادثها بنفسه ، مستصحباً تابعه زهير بن نمير دون أن يوليه عملاً يستحق الذكر ، غير التعريف بالأشخاص والأماكن .

وبنى موضوعه على ما عرف وشاهد من مجالس الأدب والمناظرة في زمانه وقبل زمانه ؛ وعلى ما بلغ اليه من عقيدة العرب الأقدمين ، وهي أن لكل شاعر رئياً من الجانّ يحبه ، ويتبعه ، ويوحي اليه . غير أنه لم يوفّق في تصوير عالم الجن ، وغرائب أرضه وخلقه ، وما اشتهر عنهم من القدرة على الحَوْلة والإتيان بالخوارق التي يعجز عنها الأناسيّ . فما نرى من أحوالهم العجيبة إلاّ لمحات ضئيلة لا يغنى بها أدب الخرافات والأساطير ، كما في كلامه على جواد زهير بن نُمَير ، وكيف طار بهما الى أرض التوابع . أو في حديثه عن تابع أبي تمام : « فانفلق ماء العين عن وجه فتى كفِلقة القمر ، ثم اشتق الهواءَ صاعداً الينا من قعرها ، حتى استوى معنا . » أو قوله في زُبدة الحِقَب صاحب بديع الزمان : « فلما انتهيتُ في الصِفة ، ضرب زبدة الحِقَب الأرض برجله ، فانفرجت له عن مثل بَرَهوت ، وتدهدى اليها ، واجتمعت عليه ، وغابت عينه . » ومثل ذلك أخبار حيوانات الجن في اجتماعها وأحاديثها . فعالم

ابن شهيد إنسيّ ، وان أضافه الى جنّة عبقر ؛ وتوابع الشعراء والكتّاب جديرة بأن تكون مُثُلاً لأصحابها ، لا أن تُعَدّ في الجِنّان ، فليس في وادي الأرواح شيء يختلف عما في وادينا من المخلوقات الحيّة ، وغير الحيّة ، سوى ما أشرنا اليه ، وسوى أن الحيوان عاقل ناطق كما في كليلة ودمنة ، وشاعر عاشق متغزل كما في عبث بشار .

واذا قلنا إن هذه الأرواح من عالَم المُثُل ، فما نريد به الإفراط على أفلاطون وأتباعه من فلاسفة العرب ، وإنما نقصد أن أبا عامر ألبس التوابع أثواب أصحابها ، فجاءت على غِرار المُثُل الأفلاطونية في بعض حدودها ، وأبانت عن شخصيات الشعراء والكتّاب في الصفات والأخلاق والآداب . فصاحب امرىء القيس فارس على فرس شقراء تلتهب ، في وادٍ ذي دوح تتكسّر أشجاره ، وتترنم أطياره ، كدارة جُلجُل ؛ وتابع قيس ابن الخطيم فارس كأنه الأسد ، غضوب يُخشى شره ، ويُتّقى تهديده ، وكذلك كان الشاعر الجاهلي في بطشه وانتقامه . ونجد رئيّ أبي تمام يعنى بالمدح والرثاء كصاحبه الطائي ، ويوصي أبا عامر ألاّ يكدّ قريحته ، اذا دعته النفس الى القول ؛ وأن يُنقّح شعره ، بعد جَمام ثلاثة أيام من نظمه ، فيذكرنا بوصية أبي تمام للبحتري . ونسمع قرع النواقيس بذات الاكيراح من دير حنة ؛ وتبدو الرهابين مشدّدة بالزنانير ، بيض اللحى والحواجب ، قد

قبضت على العكاكيز ؛ ثم نشرف على بيت قد اصطفّت دنانه ، وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسَّبَلة ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، وغلبت عليه نشوة الراح فما يستفيق إلا على صوت ابن شهيد ينشده خمرية ، فيستزيده ، ثم يسأله إنشاد قطعة من مجونه . وما ذاك الشيخ سوى حسن الدنان شيطان أبي نواس . ونرى صاحب المتنبي فارساً على فرس بيضاء ، ينظر من مقلة شوساء ، قد ملئت تيهاً وعُجباً ، ولا يرضى الشعرَ إلا متيناً شديد الأسر ، شأنَ أبي الطيّب . ويطل علينا شيخ أصلع ، جاحظ العين اليُمنى ، عليه قلنسوة طويلة ، تذكرنا بطويلة أبي عثمان في حضرة القاضي أحمد بن أبي دؤاد ؛ والى جنبه شيخ آخر ، هو صاحب عبد الحميد ، وكلاهما يكره السجع والتكلف . فاذا فات أبا عامر بن شهيد براعةُ التصوير لعالم الجن ، فما فاته إحسانُ تمثيل الأدباء في أشخاص توابعهم ، وهذا شيء يحمد عليه .

ونتبين من خلال طوافه ومساجلاته ، إجلاله لبعض الشعراء والكتّاب ، وجرأته على بعضهم الآخر ، فبينا نراه يلقى عُتَيْبَة ابن نوفل صاحب امرىء القيس ، فيتلكأ عن الانشاد في حضرته ، ويهم بالحيصة ، ثم ينظر الى حسن الدنان ، فتدركه مهابته ، ويأخذ في تعظيمه لمكانه من العلم والشعر ، نجده يتعرض لأبي الطبع تابع البحتري ، فيباريه في القريض ، فيسودّ وجهه ،

ويكرُّ راجعاً الى ناوَرْدِه دون أن يسلّم ؛ وينافس زُبدة الحِقَب صاحب بديع الزمان في وصف الماء ، فيشقّ الأرض برجله ، فتبتلعه ، من شدة الخجل . وهو في الغالب يستطيل على معاصريه أكثر منه على المتقدمين ، ولأهل الجاهلية في نفسه حرمة ووقار .

وأما أبو العلاء فانه بنى موضوع رسالة الغفران على ما ذُكر من وصف الجنة والنار وموقف الحساب ، في القرآن والحديث ، وتصانيف المتصوفة مثل كتاب التوهم للمحاسبي ، وما جاء من القصص والشروح والتفصيلات على خبر المعراج . فكان في تصوير عالم الآخرة أبرع من أبي عامر في تصوير عالم الجن ، وان يكن الخيال ، عند هذا وذاك ، ينساق الى الاتّباع أكثر منه الى الابداع ؛ فظهرت الجنة بأنهارها وأشجارها ، وطعامها وشرابها ، وجمال حُورها ، من الصالحات الناجيات ، وفيهن من كانت دميمة سوداء ، فأصبحت في الجنان حوراء عيناء ، شفافة بيضاء ، أو من المنشآت في الخلد أبكاراً عُرُباً أتراباً ، تنشقُّ عنهن الأثمار ، فيخرجن منها كواعب يرقصن ، فتهتز أرجاء الجنة . والصالحون متكئون على مفارش من السندس ، أو يحملهم الحور والولدان على سُرُر من زبرجد أو عسجد ، وهم مستلقون على ظهورهم ، منعّمون بالراحة الكبرى . فاذا رأوا عنقوداً من العنب أو غيره ، انقضب عن الشجرة بمشيئة

الله ، وحملته القدرة الى أفواههم ، إذ لا همّ لها إلا تلبية شهوات الأبرار الناجين .

وموقف الحشر شديد الهول والظمإ ، كثير الزحام ، لا يدخل الجنة فيه إلا من غُفِر له ، وخُتم عمله بالتوبة في الديوان الأعظم ، وأعطي جواز المرور ، فينغب من الحوض نغبات لا ظمأ بعدها ، ثم يعبر الصراط الى جنّات النعيم .

ويرى الناظر من المطّلَع الى النار إبليس يضطرب في الأغلال والسلاسل ، ومقامعُ الحديد تأخذه من أيدي الزبانية . فاذا التمس منك ، وقد نجوتَ بإذن الله ، حاجة ، لا تستطيعها له ، لأن الآية سبقت في أهل النار : « ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة ، أن أفيضوا علينا من الماء ، أو مما رزقكم الله . قالوا : إنّ الله حرّمها على الكافرين ! » وهذا صخر أخو الخنساء كالجبل الشامخ ، تضطرم النار في رأسه : كأنه عَلَم في رأسه نار . وذاك بشار قد أُعطي عينين لينظر الى ما نزل به من النكال ، فاذا أغمضهما حتى لا ينظر ، فتحهما الزبانية بكلاليب من نار . وهناك عنترة يتلدّد في السعير ، والأخطل يتضور ويزفر زفرةً تعجب لها الزبانية . فرسالة الغفران لا تشتمل على أبلغ من ذلك في وصف النار والعذاب ، وانما هي أدقّ تصويراً للجنة وموقف الحساب .

وأقام أبو العلاء في الفردوس المآدب الأنيقة ، ومجالس اللهو والشراب ، والرقص والغناء ، على ما هو مألوف في الحياة الدنيا ، مع ما استفاده من أوصاف الكتب الدينية ، أو زيّنه بخياله وفنه ، كذكر طاووس الجنة ، وانبعاثه حياً بعد ذبحه وأكله ، أو حديثه عن شجرة الجوز ، وانشقاق كل جوزة منها عن أربع جوارٍ يرقصن على الأبيات المنسوبة الى الخليل .

وعقدَ حلقات الأدب والمذاكرة شأنَ أبي عامر في التوابع والزوابع ، فطوّف صاحبَه ابن القارح على الشعراء وعلماء اللغة ، ينظر في شؤونهم وأحوالهم ، ويسألهم : بمَ غُفِر لهم ، ويستفسرهم أموراً تختص بهم ، أو يوقع بينهم المشاحنة والمناظرة ، على مثال ما تقع بين الأدباء في الدار العاجلة ، مع أن الجنة رحضت ما في صدورهم من الحقد والشحناء . فالأعشى صار عشاه حَوَراً ، والخنساءُ ظهره قِواماً ؛ وقد شفع له الرسول ، لحرمة يمتّ بها اليه في مدحه ، فغُفر له ، وأُدخل الجنان على أن لا يشرب فيها خمراً . وزهير شابٌ كالزهرة الجنيّة ، كأنه ما سئم تكاليف الحياة ، ولا عُمّر تسعين حجّة ؛ غُفِر له لايمانه بالله ، قبل الاسلام ، ووصيته لبنيه بأن يطيعوا القائم الذي يدعوهم الى عبادة الله . وعَبيد بن الأبرص غُفر له ببيت من الشعر يقول فيه : « وسائلُ الله لا يخيبُ » . فكثر رواته وحفّاظه ، وما زال يُنشَد ويُحفظ ، حتى أسقط العقوبة

عن صاحبه ، وشملته الرحمة ببركته . وعديّ بن زيد مات نصرانياً فغُفر له ، ولم يدرك الاسلام لتقوم الحجة عليه . وهو صاحب قنص ولهو في الجنة ، كما كان في الدار الفانية . ويسأله ابن القارح عن إعراب بيت له استشهد به سيبويه ، فيجيبه : « دعني من هذه الأباطيل ! » وكذلك كان جواب بشار من أسفل الجحيم ، عندما سأله عن تسكين باء السُبُد في قافيته ، فقال : « دعني من أباطيلك ، فاني لمشغول عنك ! » ويجتمع النابغة الجعدي والأعشى في مجلس غناء ، فتحدث بينهما مُلاحاة أدبية ، يتشاتمان فيها ، ويتنازعان فضل الشاعرية والحسب ، فيستوقفهما ابن القارح ، ويقول لهما : «لا عربدة في الجنان . »

ويشتد أبو العلاء في النقد والغمز على المحدَثين أكثر منه على الأقدمين ؛ فاذا عاب الإسناد في قافية عمرو بن كلثوم ، لم يزد على أن يقول بلسان ابن القارح : « لوددت أنك لم تساند في قولك . » ويأبى أن ينسب الى امرىء القيس أبياتاً من التسميط ركيكة ، ظاهرة النحل ، فجعله ينكرها فيقول : « والله ، ما سمعت هذا قط . » مع أنه لم يترفق في نقد بشار ، على اعجابه بشعره ، ولا أولى أبا تمام شيئاً من عطفه ، حين ترك عنترة يقول في كلامه : « أما الأصل فعربي ، وأما الفرع فنطَقَ به غبي ، وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب . »

-وكان لأبي علي الفارسي نصيب من نقده وسخره . فألبّ عليه جماعة من الأدباء في الجنة ، تلومه وتُعنته لتأويلاته المستهجَنة في اللغة والنحو ، فينقذه ابن القارح منهم ، ويبعدهم عنه .

وأنزل سخطه على الرجّازين ، فجعل بيوتهم دون سائر البيوت السماوية ارتفاعاً ، كما تنخفض أبيات الرجز عن أبيات القصيد ؛ وعمد الى صاحبهم رؤبة بن العجّاج ، فأكثر الإنحاء عليه ، وعاب قوافيه النافرة ، وصلابة ألفاظه ، وضيق أغراضه ومعانيه .

وللجن في رسالة الغفران موضع باسم جنة العفاريت ، ليس عليها النور الشعشعاني كجنة الأناسي ، وانما هي أدحال وغماليل ، وأهلها يدركهم المشيب ، مع أن سائر أهل الجنة شباب ؛ لأن الجن أُعطوا الحَوْلة في الدار الماضية ، فكانوا يتصورون ، على مشيئتهم ، حيّة أو عصفوراً أو حمامة ، فحُرموا الشباب ، وفيض النور الالهي في الجنة ، وصُوّر بنو آدم فيها أحسن تصوير . وهنا يأتي أبو العلاء على ذكر أشياء من خصائص الجن كتحولات أبي هدرش ، ورجم العفاريت بالشهب المحرقة ، مما لم يُعنَ به أبو عامر في رسالته ، إلا أنه لم يرفع شأن التوابع مثله ، بل عدّهم أطيفالاً من الجن ، ينفثون الى الإنس القليل

من الشعر والأوزان : « وهـل يعرف البشر من النظيم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ، ومساحة الأرض ؟ ! »

والحيوان عند المعري عاقل ناطق ، كما هو عند ابن شهيد ، غير أنه يستطيع التحوُّل اذا شاء ، فان حيّة الفردوس همّت بأن تنتفض من إهابها فتصير مثل أحسن غواني الجنة ، ليترشف الشيخ ابن القارح رضابها ، وهذا لم تستطعه بغلة أبي عيسى في التوابع والزوابع ، مع ما بها من الشوق الى أبي عامر . وكلاهما ذكر الاوز في رسالته ، فأما إوزة ابن شهيد ، فانها أديبة نحوية تبحث في الأصول والفروع ، ولكنها بلهاء حمقاء ، كما هو معروف عن بنات جنسها ؛ وأما إوزة المعري ، فقد نفضت عنها في الجنة بلَه الاوز ، وبوسعها أن تتحول كاعباً حسناء ، ترفل في وشي الفردوس ، وتحسن الغناء والضرب على الأوتار . وقد أبدع أبو عامر في وصف حركات إوزته وتقلبها في المـاء ، كما أبدع أبو العلاء في سخره اللطيف ، حين أراد جماعة الشعراء أن يقتسموا الاوزات المغنيات ، فقال لبيد بن ربيعة : « إن أخذ أبو ليلى قينة ، وأخذ غيره مثلها ، أليس ينتشر خبرها في الجنة ، فلا يُؤمَن أن يُسمى فاعلو ذلك أزواجَ الاوز ! »

والسخر في رسالة الغفران من أخصّ ميزاتها الأدبية ، فان ضرير المعرة على تشاؤمه المظلم ، يلجأ اليه في تصانيفه ، تسنيداً

لآرائه الفلسفية ، وإرضاء لشكه واضطرابه في الغيبيات والعقائد الدينية ؛ ويميل بـه في الرسالة الى الدعابة والعبث ، فهو ناعم الملمس لا خشونة فيه ، عميق الغور ، يغشيه ستار من الايمان والاستدلال بالآيات والأحاديث . فاذا صنع ابن القـارح مأدبة في الجنان ، قال : وتلك لذة يهبها الله ، عزّ سلطانه ، بدليـل قوله : « وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذّ الأعين ، وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة التي أورثتموها بمـا كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون . » واذا انفلقت ثمار الجنة عن حوريات تبرَق لحسنها ، قـــال : هذا كما جاء في الحديث : « أعددت لعبادي المؤمنين ما لا عين رأت ، بَلْهَ مـا اطّلعتم عليه . »

فمدار سخره عـلى ما يتصوّر الناس من الأشياء المـادية في الآخرة ، ثم على عقيدة الغفران ، وسهولة الحصول عليه عندهم ، فربما غفر الله للخاسر ببيت من الشعر يُحفظ ويُروى ، كما غفر للأعشى وزهير وعَبيد والحطيئة .

ولا تخلو رسالة التوابع والزوابع عن السخر ؛ فـان ابن شهيد ، في تعرضـــه للشعراء والأدباء ، أخرج الكلام عليهم مُخرَج الهزل والتهكم ؛ إلا أن سخريته تتّسم بالحدّة والخشونة والإقذاع والوضوح ، كما في قوله : « وقلت للمنشدة : مـــا

هَوِيتُ ؟ قالت : هَوِيتُ، بلغة الحمير . فقلت : والله ، إن للرَوث رائحة كريهة ، وقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم في الشعر . » وقلما تلطف واستدق فيهـا ، مثل قوله للإوزة النحوية : « محمول عنك ، أمٌ خفيف ، لا يلزم الإوزَّ حفظُ أدب القرآن . »

وأما لغة التوابع فانها رشيقة طليّة ، موشاة أنيقة ، غنية بالأوصاف والصور والألوان ، بخلاف رسالة الغفران ، فان لغتها تكاد تفتقر الى الوشي والتصوير ، إلاّ ما اقتبس صاحبها من القرآن ، أو أخذ عن سابقيه . وهذا أمر طبيعي في كاتب ضرير طَفِيء النور في عينيه عن الصورة واللون ، قبل سن الادراك والتمييز . فأبو عامر يسمو على المعري برونق الديباجة ، ودقة الوصف ، ولكنه ينحدر عنه بعمق الفكرة ، ولطافة السخر ، وقوة الجاذبية ، وسحر الاستهواء ؛ وله فضل المتقدم على كل حال .

الكتاب الثاني

رسالة
التوابع والزوابع

المدخل

زهير بن نمير

لله أبا بكر[١] ظنٌّ رميتَه فأصميتَ، وحدْسٌ أملتَه فما أشوَيْتَ[٢]! أبديتَ بهما وجهَ الجَلِيَّة، وكشفتَ عن غُرَّة الحقيقة، حين لمحتَ صاحبَك الذي تكسَّبْتَه ورأيتَه قد أخذ بأطرافِ السَّماء، فألَّف بين قمريها، ونظَم فرقدَيها، فكلَّما رأى ثغراً سدَّه بسُهاها[٣]، أو لمح خرقاً رمَّه بزُباناها[٤]،

---

١ ابو بكر : هو ابو بكر بن حزم ، كما ذكر ابن بسام ، واسرته شهيرة في الاندلس ومنها الفقهاء والوزراء والادباء . جاء في وفيات الاعيان : وكان بين ابن شهيد وابن حزم الظاهري مكاتبات ومداعبات . والمراد به الفقيه ابو محمد بن حزم . وذكر الفتح بن خاقان في مطمح الانفس ان ابن حزم كنيته ابو المغيرة ، وكان هو وابن شهيد خليلي صفاء لا ينفصلان في رواح ولا مقيل . وابن حزم هذا من الوزراء الكتاب .

٢ أصميت : أي رميت فقتلت الصيد في مكانه . ما أشويت : ما أخطأت المقتل . يقال أشواه : أصاب شواه ، أي أطرافه ، لا مقتله .

٣ السهى : كوكب خفي من بنات نعش الصغرى ، مجاور للقطب ، وكان العرب يمتحنون به ابصارهم لخفائه .

٤ رمه : اصلحه . الزباني : واحد الزبانين ، وهما كوكبان نيران في قرني برج العقرب معترضان بين الشمال والجنوب ، بينهما قيد رمح ينزلهما العقرب في الليلة السابعة عشرة .

الى غير ذلك . فقلتَ : كيف أوتيَ الحُكمَ صبياً ، وهزّ بجذعِ نخلة الكلام فاسّاقطَ عليه رُطَباً جَنياً ؟ أما إن به شَيْطاناً يَهديه ، وشَيْصَباناً[1] يأتيه ! وأُقسِمُ أنّ له تابعةً[2] تُنجِدُه ، وزابعةً[3] تؤيّدُه ، ليس هذا في قُدْرةِ الانس ، ولا هذا النَّفَسُ لهذه النَّفْس . فأمّا وقد قلتَها ، أبا بكرٍ ، فأصِخْ أُسمِعْكَ العَجَبَ العُجاب :

كنتُ أيّامَ كُتّابِ الهِجاء ، أحِنُّ الى الأدباء ، وأصبُو الى تأليفِ الكلام ؛ فاتّبعتُ الدّواوين ، وجلستُ الى الأساتِيذ ، فنَبَضَ لي عِرقُ الفَهْم ، ودَرّ لي شِرْيانُ العِلم ، بموادَّ رُوحانية ؛ وقليلُ الالتِماح من النظر يزيدني ، ويَسيرُ المطالَعةِ من الكتبِ يُفيدُني ، إذ صادَف سَنُّ العلم طَبقَةً . ولم أكُنْ كالثلجِ تقْتَبِسُ منه ناراً ، ولا كالحمارِ يحمِلُ أسفاراً . فطعَنتُ ثُغْرةَ البيانِ دِراكاً ، وأعلَقتُ رِجْلَ طيرِهِ أشراكاً ، فانثالت[4] لي العجائب ، وانهالت عليّ الرغائب[5] .

---

١ الشيصبان : اسم الشيطان ، وقبيلة من الجن .

٢ التابعة : جنية تحب الانسان وتتبعه حيث ذهب .

٣ الزابعة ، والمعروف الزوبعة ، كما في القاموس وغيره من المعجمات : رئيس للجن او اسم شيطان ، يجمع على زوابع .

٤ انثال : انصب ، وعليه القول تتابع وكثر فلم يدر بأيه يبدأ .

٥ الرغائب ، جمع الرغيبة : الامر المرغوب فيه ، والعطاء الكثير .

وكان لي أوائلَ صَبْوَتي هَوًى اشتَدَّ به كَلَفِي ، ثم لَحِقني بَعْدُ مَلَلٌ في أثناء ذلك المَيْل . فاتّفَقَ أنْ ماتَ مَنْ كنتُ أهْواه مدّة ذلك المَلَل ، فجَزِعتُ وأخَذتُ في رثائه يوماً في الحائر[1] ، وقد أبْهِمَتْ عليَّ أبوابُه ، وانفردْتُ فقلت :

تولّى الحِمامُ بظَبْيِ الخُدُورِ ،
وفازَ الرَّدى بالغَزالِ الغَريرِ

الى أن انتهَيْتُ الى الاعتِذارِ من الملَل الذي كان ، فقلت :

وكنتُ مَلِلْتُكَ لا عن قِلًى ،
ولا عن فسادٍ جرى في ضَميري

فارتِجَ عليَّ القولُ وأُفحِمْتُ ، فإذا أنا بفارسٍ بباب المجلِس على فَرَسٍ أدْهَمَ كما بَقَل وجهُه[2] ، قد اتّكأ على رُمحِه ، وصاح بي : أعَجْزاً يا فتى الإنس ؟ قلتُ : لا وأبيكَ ، للكلامِ أحيان ، وهذا شأنُ الانسان ! قال لي : قُلْ بعدَه :

كمِثْلِ مَلالِ الفتى للنعيم ،
إذا دامَ فيه ، وحالِ السُّرورِ

---

١ الحائر : البستان .

٢ بقل وجهه : خرج شعره .

فأثبتُّ إجازتَه، وقلتُ له : بأبي أنت ! مَنْ أنت ؟ قال : أنا زُهَيرُ بن نُمَير من أشجَعِ الجِنِّ[١]. فقلتُ : وما الذي حداكَ الى التصوُّرِ لي ؟ فقال : هَوًى فيك ، ورَغبةٌ في اصطفائِك . قلت : أهلاً بكَ أيُّها الوجهُ الوَضَّاح ، صادفتَ قلباً إليك مقلوباً[٢] ، وهوًى نحوكَ مجنُوباً . وتحادَثْنا حيناً ثمَّ قال : متى شئتَ استِحْضاري فأنشِدْ هذه الأبيات :

والي زُهَيرَ الحُبِّ ، يا عَزَّ ، إنه
إذا ذكَرَتْـه الذّاكراتُ أتاها[٣]

إذا جَرَتِ الأفواهُ يوماً بذِكرِها
يُخَيَّلُ لي أنّي أُقبِّلُ فاها

فأغشى ديارَ الذّاكرين ، وإن نَأَتْ
أجارِعُ مِنْ داري ، هوًى لهَواها[٤]

---

١ اشجع الجن : اي ينتسب الى بني اشجع في الجن ، وابن شهيد ينتسب الى بني اشجع في الانس ، فبينه وبين شيطانه قرابة ، وبنو اشجع قبيلة عربية .

٢ اليك : اي شوقاً اليك . مقلوباً : مصاباً ، من قلبه : اصاب قلبه ، ويأتي مقلوباً بمعنى محولا ، فيكون المعنى محولا اليك ، يقال : قلبه ، اي حوله عن وجهه .

٣ والي : لحقه الخرم ، وهو حذف اول الوتد المجموع من اول البيت ، اي حذف فاء فعولن في الطويل ، فبقي عولن ، فنقل الى فعلن .

٤ اجارع : جمع اجرع ، وهو الكثيب له جانب رمل ، وجانب حجارة ، او هو ارض ذات حزونة يعلوها رمل .

وأوثَبَ الأدهمَ جِدارَ الحائطِ ثم غابَ عنّي . وكنتُ ، أبا بكرٍ ، متى أرتِجَ عليّ ، أوِ انقطَعَ بي مَسلَكٌ ، أو خانَني أُسلوبٌ أُنشِدُ الأبياتَ فيُمثِّل لي صاحبي ، فأسيرُ الى ما أرغبُ ، وأُدرِكُ بقريحتي ما أطلبُ . وتأكّدتْ صُحبتُنا ، وجرَتْ قِصَصٌ لولا أن يطُولَ الكتابُ لذكرتُ أكثرَها ، لكنّي ذاكرٌ بعضَها .

الفصل الاول

توابع الشعراء

شيطان امرىء القيس

تذاكرتُ يوماً مع زُهير بن نُمَير أخبارَ الخُطَباء والشعَراء، وما كان يألَفُهُم من التّوابع والزّوابع، وقلتُ: هل حيلةٌ في لِقاء من اتّفَق منهم؟ قال: حتى أستأذِنَ شيخَنا. وطار عنّي ثم انصرَفَ كلَمحٍ بالبَصَر، وقد أُذِنَ له، فقال: حُلّ على مَتنِ الجَواد. فصرنا عليه؛ وسار بنا كالطائر يَجتابُ الجوّ فالجوّ، ويقطَعُ الدّوّ فالدّوّ[1]، حتى التَمَحْتُ أرضاً لا كأرضِنا، وشارَفتُ جوّاً لا كجَوّنا، متفرّعَ الشجَر، عَطِرَ الزّهَر؛ فقال لي: حلَلْتَ أرضَ

---

١ الدو : الفلاة .

الجِنّ أبا عامر ، فبِمَنْ تُرِيدُ أنْ نَبْدَأ ؟ قلتُ : الخطباءُ أولى بالتّقديم ، لكنّني الى الشعراء أشْوَق . قال : فمَن تُرِيدُ منهم ؟ قلت : صاحبَ امرئِ القَيْس . فأمالَ العِنانَ الى وادٍ منَ الأودية ذي دَوحٍ تتكسّرُ أشجارُه ، وتترنّمُ أطيارُه ، فصاح : يا عُتَيبةُ بنَ نوفَل ، بسِقْطِ[1] اللّوى فحَوْمَل ، ويومِ دارةِ جُلجُل ، إلاّ ما عَرَضْتَ علينا وجهَك ، وأنشَدْتَنا من شِعرِك ، وسمِعتَ من الإنسيّ ، وعرّفتَنا كيف إجازتُك له ! فظهَر لنا فارِسٌ على فرسٍ شقراء كأنّها تلتَهِب ، فقال : حيّاكَ اللهُ يا زُهَير ، وحيّا صاحبَك ! أهذا فتاهُم ؟ قلتُ : هو هذا ، وأيُّ جَمْرةٍ يا عُتَيبة ! فقال لي : أنشِدْ ؛ فقلتُ : السيّدُ أولى بالإنشاد . فتطامحَ طَرْفُه ، واهتزّ عِطْفه ، وقبَضَ عِنانَ الشّقْراء ، وضرَبها بالسّوط ، فسمَت تُحْضِر طُولاً عنّا ، وكَرّ فاستقبلَنا بالصّعْدةِ[2] هازّاً لها ، ثم رَكزَها وجعَل يُنشِد :

سما لك شوقٌ بعدما كان أقصَرا[3]

---

١ بسقط : الباء للقسم .

٢ الصعدة : القناة المستوية .

٣ سما لك : مطلع قصيدة مشهورة لامرىء القيس ، قالها وهو ذاهب الى بلاد الروم .

حتى أكملها ثم قال لي : أَنشِدْ ؛ فهممتُ بالحَيصةِ[1] ، ثم اشتدَّتْ قُوى نفسي وأنشَدْتُ :

شَجتهُ مَغانٍ من سُلَيمى وأَدْؤُرُ[2]

حتى انتهيتُ فيها الى قولي :

ومِن قُبَّةٍ لا يُدرِكُ الطَّرْفُ رأسَها ،
تَزِلُّ بهـا رِيحُ الصَّبا فتَحَدَّرُ

تكَلَّفتُها والليلُ قد جاشَ بَحرُهُ ،
وقد جعَلَتْ أمْواجُـهُ تتَكَسَّرُ

ومن تحتِ حِضني أبيضٌ ذو سَفاسِقٍ ،
وفي الكفِّ من عَسَّالةِ الخَطِّ أسمرُ[3]

هُما صاحِبايَ مِن لَدُن كنتُ يافِعاً ،
مُقيلانِ من جَدِّ الفتى حين يَعثُرُ

فذا جدوَلٌ في الغِمدِ تُسقى به المنى ،
وذا غُصُنٌ في الكَفِّ يُجنى فيُثمِرُ

---

١ الحيصة : الانهزام والهرب .
٢ المغاني : المنازل . ادؤر : جمع دار .
٣ السفاسق : جمع سفيسقة وسفسوقة ، وهي فرند السيف او طرائقه .

فلمّا انتَهَيتُ تأمّلني عُتَيبةُ ثم قال : اذهَبْ فقد أجزتُك.
وغاب عنّا .

شيطان طرفة

فقال لي زهير : من تُريدُ بَعدُ؟ قلتُ : صاحِبَ طَرَفة. فجزَعْنا[1] واديَ عُتَيْبة ، وركَضْنا حتى انتهَيْنا الى غَيضةٍ شجرُها شَجَران: سامٌ يَفوحُ بَهاراً[2]، وشِحرٌ[3] يَعبَقُ هندِيّاً[4] وغاراً . فرأينا عَيناً مَعِينةً[5] تَسيل ، ويدُورُ ماؤها فلَكيّاً ولا يَحُول . فصاح به زهير : يا عنترُ بنَ العَجْلان ، حَلَّ بكَ زهيرٌ وصاحِبُه ، فبِخَولة ، وما قَطَعْتَ معَها من ليلة ، إلاّ ما عَرَضْتَ وجهَك لنا ! فبَدا إلينا راكبٌ جميلُ الوجه ، قد توشَّحَ السَّيف ، واشتَمَل عليه كِساءُ خَزّ ، وبيَدِه خَطّيّ ، فقال : مرحباً بكُما ! واستَنشَدَني فقلتُ : الزعيمُ أولى بالإنشاد ؛ فأنشَد :

---

١ جزعنا : قطعنا .
٢ السام : الخيزران . البهار : نبت طيب الرائحة ينبت ايام الربيع ، ورده اصفر الورق ، احمر الوسط ، اسمن من ورق البابونج ، ويقال له العرار .
٣ الشحر او الشحير كما في القاموس وغيره من المعجمات : اسم شجر .
٤ الهندي : اي الشجر الهندي ذو الرائحة الزكية .
٥ معينة : ظاهرة جارية على وجه الارض .

لِسُعدى بِجزّانِ الشُريفِ طُلُول[1]

حتى أكملتها ، فأنشدته من قصيدة :

أمِنْ رَسْمِ دارٍ بالعَقيقِ مُحيلِ

حتى انتهيتُ الى قولي :

ولمّا هَبَطْنا الغَيْثَ تُذعَرُ وحْشُهُ
على كلّ خوّارِ العِنـانِ أسيلِ [2]

وثارَتْ بناتُ الأعْوَجيّاتِ بالضُحى
أبابيلَ ، مِن أعْطافِ غيرِ وبيلِ [3]

---

١ لسعدى : في ديوان طرفة : لهند . الحزان : الامكنة الغليظة الصلبة، مفردها الحزيز . الشريف : اعلى جبل ببلاد العرب ، قاله صاحب القاموس وقد صعده ، وماء لبني نمير بنجد ، تنسب اليه العقبان ، او واد بنجد ، وحصن من حصون زبيد باليمن ، ذكر ذلك كله ياقوت ، وفي الاصل الشديف ، والتصحيح عن ديوان طرفة . وتمام البيت : تلوح وادنى عهدهن محيل .

٢ الغيث : اي النبات المسبب عن الغيث ، وهو مجاز مرسل . خوار العنان : اي فرس لين العطف . الاسيل : السبط المسترسل ، وتستحب الاسالة في خد الفرس ، وهي دليل الكرم .

٣ الاعوجيات : اي الخيول الكريمة ، منسوبة الى اعوج ، فرس لبني هلال مشهور. ابابيل : متفرقة فرقاً ، جمع لا واحد له . الاعطاف : جمع عطف بالكسر ، وهو قارعة الطريق . الوبيل : المرعى الوخيم .

مُسَوَّمَةٌ نَعْتَدُّها مِنْ خِيارِها ،
لِطَرْدِ قَنيصٍ ، أو لِطَرْدِ رعيل[1]

اذا ما تَغَنَّى الصَّحْبُ فوقَ مُتونِها
صُحَيّاً ، أجابَتْ تَحْتَهُمْ بصَهيل

نَدُوسُ بِهـا أَبْكارَ نَورٍ كأنّه
رِداءُ عَرُوسٍ أوذِنَتْ بِحَليل

رَمَيْنا بِها عُرضَ الصُّوارِ فأقْعَصَتْ
أغَنَّ فَتَلْناهُ بغيرِ قَتيلِ[2]

وبادَرَ أصْحابي النُّزولَ ، فأقبَلَتْ
كَراديسُ من غَضِّ الشِّواء نَشيل[3]

نُمَسِّحُ بالحَوذانِ منه أكُفَّنا ،
اذا ما اقتَنَصْنا منه غيرَ قَليل[4]

---

١ المسومة : الخيول المعلمة بعلامات الغزو . نعتدها : اي نعدها ، من اعد .

٢ العرض بالضم : الجانب . الصوار : القطيع من البقر الوحشي ، والمراد هنا قطيع من الظباء . اقعصت : قتلت . الأغن : الظبي يخرج صوته من خياشيمه . بغير قتيل : اي بغير ثأر لنا وقود .

٣ النشيل : اللحم الذي تنشله بيدك من القدر بلا مغرفة . او العضو الذي تأخذه بيدك ، فتتناول ما عليه من اللحم بفيك .

٤ الحوذان : نبت نوره اصفر ، في الاصل الجودان ، ولا معنى له ، وقد مر وصفه لابكار النور ، وشبهها برداء عروس ، وهنا يذكر تمسيح الايدي بها من اللحم .

فقُلنـا لساقِيها : أدِرْها سُلافـةً
شَمُولاً، ومِن عَينَيك صِرفَ شَمُول[1]

فقامَ بكأسَيْنِــه مُطيعاً لأمْرِنا،
يَميلُ به الإدلالُ كلَّ مَميــل

وشَعْشَعَ راحَيْهِ ، فما زالَ مائِلاً
برأسِ كريمٍ منهُمُ وتَليــل[2]

الى أن ثَناهُمْ راكِدِينَ، لِما احتَسوا،
خَليعِـينَ من بَطشٍ وفَضْلِ عُقول

نَشاوى على الزَّهراء، صَرعى كأنّهُمْ
أساطينُ قَصْرٍ ، أو جُذُوعُ نَخيل[3]

فصاحَ عنترُ : للهِ أنت ! اذهَبْ فإنك مُجاز . وغابَ عنّا . ثم مِلنا عنه .

شيطان قيس بن الخطيم

فقال لي زهير : الى مَنْ تتوقُ نفسُك بَعدُ من الجاهليّين ؟

---

١ الشمول : الخمر ، او الباردة منها .
٢ التليل : العنق .
٣ الزهراء : اي الارض الزهراء ، او اراد بها مدينة الزهراء بالقرب من قرطبة .

قلتُ : كفاني مَن رأيتُ ؛ اصْرِفْ وجْهَ قصدِنا الى صاحِبِ أبي تمّام . فرَكَضْنا ذاتَ اليمين حيناً ، ويشتَدُّ في إثرِنا فارسٌ كأنّه الأسَد ، على فرسٍ كأنّها العُقاب ، وهو في عَدْوه ذلك يُنشِد :

طَعَنْتُ ابنَ عبدِ القيسِ طَعنةَ ثائرٍ ،
لها نَفَذٌ ، لولا الشعاعُ ، أضاءَها[1]

فاستَرَبتُ منه ، فقال لي زهير : لا عليك ، هذا أبو الخَطّارِ صاحبُ قيسِ بنِ الخَطيم . فاستَنبَى لُبّي من إنشادِهِ البيتَ ، وازدَدتُ خوفاً لجُرأتِه ، وأنّنا لم نُعَرِّجْ عليه . فصرفَ إليه زهيرٌ وجهَ الأدهم ، وقال : حيّاكَ اللهُ أبا الخَطّار ! فقال : أهكذا يُحادُ عن أبي الخَطّار ، ولا يُخطَرُ عليه[2] ؟ قال : علمناكَ صاحِبَ قَنَص ، وخِفنا أن نَشغَلَك . فقال لي : أنشِدْنا يا أشجَعِيّ ، وأقسِمُ أنّكَ إن لم تُجِدْ ليكونَنَّ يومَ شرّ . فأنشدْتُه قولي مِن قصيدة :

---

١ البيت من قصيدة لقيس بن الخطيم الاوسي . ابن عبد القيس : هو قاتل والد قيس بن الخطيم . ثائر : آخذ بالثأر . النفذ : ما ينفذ من الطعنة . الشعاع : الدم المتفرق المنتشر . اضاءها : فاعلها يعود الى نفذ . يقول : لولا الدم المنتشر في هذه الطعنة ، لظهر منها النور ، لانها نفذت من جانب الى آخر .

٢ يخطر عليه : اي يمر به .

مَنازِلُهُمْ تَبْكِي إليكَ عَفاءَها

ومنها :

خليليَّ عُوجا ، باركَ اللهُ فيكُما ،
بِدارَتِها الأولى نُحَيِّ فِناءَها !

علم أرَ أسْراباً كأسْرابِها الدُّمى ،
ولا ذئبَ مثلي قد رعى ، ثَمَّ ، شاءَها[1]

ولا كضَلالٍ كان أهدى لصَبْوتي ،
ليالِيَ يَهْدِيني الغَرامُ خِباءَها

وما هاجَ هذا الشوقَ إلاّ حَمائِمٌ ،
بَكَيْتُ لها لمّا سَمِعْتُ بُكاءَها

عَجِبْتُ لِنفسي كيف مُلِّكَها الهوى ،
وكيفَ اسْتَفَزَّ الغانِياتُ إباءَها ؟

ولو أنَّني أنْحَتُّ عليَّ أكارِمٌ ؛
تَوَخَّيْتُ بالعِرضِ الكريمِ جَزاءَها

ولكنَّ جُرْذانَ الثُّغورِ رَمَيْنَني ،
فأكرَمْتُ نفسي أن تُريقَ دِماءَها

---

١ اسرابها الدمى : رواية يتيمة الدهر : اسرابها الألى .

إليكَ أبا مروانَ ألقيتُ رابياً
بحاجةِ نفسٍ ما حُربتُ خزاءَها[1]

هززتُكَ في نصري ضحىً فكأنّني
هززتُ، وقد جئتُ الجبالَ، حِراءها[2]

نقضتُ عُرى عزم الزّمانِ، وإن عتا،
بعزمةِ نفسٍ لا أُريدُ بقاءها

فلمّا انتهيتُ تبسّم وقال: لَنِعْمَ ما تخلّصتَ! اذْهَبْ فقد أجزتُك.

صاحب ابي تمام

ثمّ انصرفنا، وركضنا حتى انتهينا الى شجرةٍ غيناء[3] يتفجّرُ من أصلِها عينٌ كمقلةٍ حوراء. فصاح زهير: يا عتّابُ بنَ حبناء، حلّ بك زُهيرٌ وصاحبُه، فبعَمْرو والقمرِ الطّالِع، وبالرُّقعةِ المفكوكةِ الطّابِع[4]، إلاّ ما

١ ابو مروان: اي الوزير ابو مروان ابن الجزيري، وكان بينه وبين ابن شهيد مساجلات شعرية. رابياً: زائداً مرتفعاً. حربت: سلبت، للمجهول. خزاءها، على مد المقصور: شدة حيائها.

٢ حراء: جبل بمكة.

٣ الغيناء: الشجرة الخضراء.

٤ الطابع بفتح الباء وبكسرها: الخاتم يطبع به، يشير الى قول ابي تمام:

يا عمرو، قل للقمر الطالع: اتسع الخرق على الراقع
يا طول فكري فيك من حامل لرقعة مفكوكة الطابع

أرَيْتَنا وجْهَكَ ! فانفلَقَ ماءُ العَيْن عن وجهِ فتىً كفِلْقةِ القمر ، ثمّ اشتقّ الهواءَ صاعداً إلينا من قَعْرِها حتى استَوى معنا . فقال : حيّاكَ اللهُ يا زهير ، وحيّا صاحبَك ! فقلت : وما الذي أسكنكَ قَعْرَ هذه العَيْن يا عتّاب ؟ قال : حَيائي من التّحَسُّنِ باسمِ الشّعْرِ وأنا لا أحسِنُه . فصِحتُ : ويلي منه ؛ كلامُ مُحْدَثٍ[1] وربّ الكعْبة ! واستنشَدَني فلم أنشِدْه إجلالاً له ، ثم أنشدتُه :

أبكَيْتَ ، إذ ظعَنَ الفَريقُ ، فِراقَها[2]

حتى انتهَيْتُ فيها الى قولي :

إنّي امْرُؤٌ لَعِبَ الزّمانُ بِهِمّتي ،
وسُقِيتُ من كأس الخُطوبِ دِهاقَها

وكبَوتُ طِرْفاً في العُلى ، فاستَضحكَتْ
حُمرُ الأنامِ ، فما تَريمُ نُهاقَها[3]

واذا ارتَمَتْ نحوي المُنى لِأنالَها ،
وقَفَ الزّمانُ لها هناكَ فعاقَها

---

١ محدث : اي من الشعراء المحدثين ، والمراد بهم العباسيون الذين يميلون الى تزويق الكلام وتمويهه .
٢ الفريق : الجماعة من الناس .
٣ طرفاً : فرساً كريماً ، منصوب على الحال . ما تريم : اي ما تترك .

وإذا أبو يَحْيَى تأخّرُ نَفسُهُ،
فمتى أُؤمّلُ في الزّمان لَحاقَها؟[1]

فلمّا انتَهَيتُ قال: أنشِدْني من رِثائك. فأنشدتُه:

أعِينَا امْرَأً نَزَحَتْ عَيْنُهُ،
ولا تَعْجَبا مِنْ جُفُونٍ جِمادِ[2]

اذا القلبُ أحْرَقَهُ بَثُّهُ،
فإنّ المدامِعَ تِلْوُ الفُؤادِ

يَوَدُّ الفتى مَنْهَلاً خالياً،
وسَعْدُ المَنِيّةِ في كلّ وادِ[3]

ويَصْرِفُ للكونِ ما في يديهِ،
وما الكَونُ إلاّ نَذيرُ الفَسادِ[4]

---

١ نفسه: همته. ورواية يتيمة الدهر: تأخر سعيه. لحاقها: الضمير يعود الى المنى، في البيت السابق.

٢ نزحت: نفد ماؤها. جماد: جمع جمد بفتح فسكون، بمعنى جامد، سمي بالمصدر.

٣ في كل واد: اشارة الى المثل السائر: بكل واد بنو سعد. قيل ان الأضبط ابن قريع السعدي تحول عن قوم، وانتقل في القبائل، فلما لم يحمد جوارهم رجع الى قومه، وقال المثل.

٤ يصرفه: يفلته، ويجعله ينصرف، او هو بمعنى ينفقه.

لقد عَثَرَ الدَّهرُ بالسّابقينَ ،
ولم يُعجزِ الموتَ رَكْضُ الجَواد

لَعَمْرُكَ ما رَدَّ رَيْبَ الرَّدى
أريبٌ ، ولا جاهِدٌ باجْتِهاد

سِهامُ المَنايا تُصيبُ الفَتى ،
ولو ضَرَبُوا دُونَه بالسَّداد

أصَبْنَ ، على بَطْشِهِمْ ، جُرْهُماً ،
وأصْمَيْنَ ، في دارِهِمْ ، قومَ عاد

وأقعَصْنَ كلباً على عِزِّه ،
فما اعتَزَّ بالصّافِناتِ الجِياد[1]

الى أنِ انتَهَيتُ فيها الى قولي :

ولكِنَّني خانَني مَعْشَري ،
ورُدْتُ يَفاعاً وبيلَ المَراد[2]

---

١ اقعصن : قتلن . كلب : هو كلب بن وبرة ابو قبيلة يمانية مشهورة . الصافنات : صفة للخيول اذا قامت على ثلاث قوائم ، وطرف حافر الرابعة .

٢ ردت ، من راد : طلب الكلأ . اليفاع : التل . وبيل : وخيم المرعى . المراد : الموضع الذي يطلب فيه الكلأ .

وهل ضَرَبَ السَّيفُ من غيرِ كفٍّ ؟
وهل ثبتَ الرَّأسُ في غيرِ هادٍ ؟[1]

فقال : زِدْني من رِثائك وتحريضِك ؛ فأنشدتُه :

أفي كلِّ عامٍ مَصْرَعٌ لِعظيمِ ؟
أصابَ المَنايا حادِثي وقديمي

هَوى قَمَرا قيسِ بنِ عَيْلانَ آنِفاً ،
وأوحَشَ مِنْ كلبٍ مَكانُ زعيمِ[2]

فكيفَ لِقائي الحادِثاتِ اذا سَطَتْ ،
وقد فُلَّ سَيْفِي منهُمُ وعَزيمي ؟

وكيفَ اهْتِدائي في الخُطُوبِ اذا دجَتْ ،
وقد فقَدَتْ عَيْنايَ ضوءَ نُجُومِ ؟

مضى السَّلَفُ الوَضَّاحُ إلاَّ بقيَّةً ،
كغُرَّةِ مُسْوَدِّ القَميصِ بَهيمِ[3]

---

١ الهادي : العنق .

٢ قيس بن عيلان : صوابه قيس عيلان ، وهو ابو قبيلة مضرية مشهورة ، وعيلان اسم فرسه ، مضاف اليه ، واسم قيس الناس بن مضر ، واخوه الياس المعروف باسم خندف ، والمراد بالقمرين قيس وخندف .

٣ الغرة : ليلة استهلال القمر ، ومن الهلال طلعته . مسود القميص : اي الليل . البهيم : الأسود . هذه القصيدة قالها في رثاء ابي عبيدة حسان بن مالك بن ابي عبيدة ، وزير عبد الرحمن بن هشام ايام الفتنة .

ومنها :

رَمَيْتُ بها الآفاقَ عَنّي غريبةً ،
نتيجَـةَ خفّاقِ الضُّلوعِ كَظيمِ

لأبدي الى أهلِ الحِجا مِن بَواطِني ،
وأُدْلي بعُـذرٍ في ظَواهِرِ لُومِ[1]

أنا السَّيفُ لم تَتعَبْ به كَفُّ ضاربٍ ،
صَرومٌ إذا صادَفتُ كَفّ صَرُومِ

سَعَيتُ بأحرارِ الرّجـالِ ، فَخانَني
رجالٌ ، ولمْ أُنجَـدْ بِجِدٍّ عَظيمِ

وضَيَّعَني الأمْـلاكُ بَدءًا وعودَةً ،
فضِعتُ بِـدارٍ منهُمُ وحَريمِ

فقال : إن كُنتَ ولا بُدَّ قائلًا ، فإذا دَعتْـكَ نفسُكَ الى القولِ فَلا تَكُدَّ قريحَتَك ، فإذا أَكْمَلْتَ فَجَمامُ ثلاثةٍ[2] لا أقَلَّ . ونَقّحْ بعدَ ذلك ، وتذكَّرْ قوله[3] :

---

١ اللوم : مخفف اللؤم .

٢ فجمام ثلاثة : اي فراحة ثلاثة ايام .

٣ قوله : اي قول سويـد بن كراع العكلي ، وهو شاعر اموي هجا بعض قومه ، فاستعدوا عليه سعيد بن عثمان بن عفان ، فطلبه ليضربه ويحبسه ، فهرب منه ولم يزل متوارياً حتى عفا عنه .

وجَشَّمَني خوفُ ابنِ عفّانَ ردَّها،
فثقَّفتُها حولاً كَريتاً ومَرْبَعا[1]

وقد كانَ في نفسي عليها زيادةٌ،
فلمْ أرَ إلاّ أنْ أطيعَ وأسمَعا

وما أنتَ إلاّ مُحسِنٌ على إساءةِ زمانِكَ. فقبّلتُ على رأسِه، وغاصَ في العَين.

صاحب البحتري

ثم قالَ لي زُهَير: من تُريد بعده؟ قلتُ: صاحبَ أبي نُوَاس؛ قال: هو بدَيْرِ حَنّةَ[2] منذُ أشهر، قد غلَبَت عليه الخَمر، ودَيْرُ حَنّةَ في ذلك الجَبل. وعرَضه عليَّ، فإذا بيننا وبينه فَراسِخ. فركضْنا ساعةً وجُزنا في ركضِنا بقصرٍ عظيمٍ

---

١ ردها: الضمير لقصيدة الهجاء. حول كريت: سنة تامة. المربع: الموضع يقيمون فيه ايام الربيع، والمراد هنا مدة الاقامة فيه. ورواية الاغاني: ورعيتها صيفاً جديداً ومربعا.

٢ دير حنة: دير بظاهر الكوفة، كان يزوره ابو نواس، ويأوي الى الحانات القريبة منه، وقد ذكره غير مرة في خمرياته. وهو هنا في ارض الجن يأوي اليه شيطان شاعر الخمرة.

قُدّامَه ناوَرْدٌ[1] يتطاردُ فيه فُرسان ، فقُلتُ : لِمَنْ هذا القصرُ يا زهَير ؟ قال : لطَوقِ بنِ مالك ؛ وأبو الطَّبْعِ صاحبُ البُحْتُريّ في ذلك الناوَرْد ، فهل لكَ في أنْ تَراه ؟ قلتُ : ألفُ أجَلْ ، إنّه لمن أساتيذي ، وقد كُنتُ أُنسيتُه . فصاحَ : يا أبا الطَّبعِ ! فخرَج إلينا فَتًى على فَرَسٍ أشعل[2] ، وبيدِه قَناة ، فقال له زُهَير : إنَّكَ مُؤتَمِّنا[3] ؛ فقال : لا ، صاحبُكَ أشمخُ مارِناً[4] من ذلك ، لولا أنه ينقُصُه . قلتُ : أبا الطَّبعِ على رِسلِكَ ، إنّ الرِّجالَ لا تُكالُ بالقُفزان[5] . أنشِدْنا من شِعرِكَ . فأنشد :

ما على الرَّكبِ من وُقوفِ الرِّكابِ[6]

حتى أكملَها . ثم قال : هاتِ إن كنتَ قلتَ شيئاً . فأنشَدتُه :

هذهِ دارُ زينَبٍ والرَّبابِ

---

١ ناورد : فارسي الاصل ، يراد به ميدان او ملعب للخيل والبهلوان ، وربما اطلق على ضرب من المحاربة على الخيول وقهر الخصم ، ذكره دوزي في معجمه .
٢ الاشعل ، من الخيل : ما كان في ذنبه والناصية والقذال بياض .
٣ مؤتمنا : اي نأتم بك .
٤ مارناً : أنفاً .
٥ القفزان : جمع القفيز ، وهو مكيال .
٦ هذا مطلع قصيدة للبحتري ، وتمامه : في مغاني الصبى ورسم التصابي .

حتى انتَهَيتُ فيها الى قَولي :

وارتَكَضنا حتى مَضى اللَّيلُ يَسعى ،
وأتى الصُّبحُ قاطِعَ الأسبابِ[1]

فكَأنَّ النُّجُومَ في اللَّيلِ جَيشٌ
دخَلُوا لِلكُمُونِ في جَوفِ غابِ

وكأنَّ الصَّباحَ قانِصُ طَيرٍ
قبَضَتْ كَفُّهُ بِرِجْلِ غُرابِ

وفُتُوٍّ سَرَوْا وقَد عَكفَ اللَّيْـ
ـلُ وأرخى مُغدَودِنَ الأطنابِ[2]

وكأنَّ النُّجُومَ لمَّا هَدَتهُم
أشرَقَت للعُيونِ من آداب

يتَقَرَّوْنَ جَوزَ كلِّ فَلاةٍ ،
جُنحَ ليلٍ ، جَوزاؤه من ركابي[3]

---

١ الاسباب : الحبال ، والمراد حبال التلاقي .

٢ الفتو : جمع فتى . وارخى : رواية يتيمة الدهر : وارخى . المغدودن : الناعم المتثني .

٣ الجوز : الوسط . الجوزاء : برج في وسط السماء . ركابي : في الاصل ركاب، والتصحيح عن يتيمة الدهر .

عَنْ ذِكرِي لمُدلِجيهِم ، فتاهوا
مِن حديثي في عُرضِ أمرٍ عُجابِ[1]

همّةٌ في السّماءِ تَسحبُ ذيلاً ،
من ذُيُولِ العُلى ، وَجَدٌّ كابِ

ولوَ انّ الدُّنيا كَريمةُ نَجْرٍ ،
لم تكُن طُعمةً لفَرْسِ الكِلابِ[2]

جيفةٌ أنْتَنَتْ فطارَ إليها ،
من بني دهرِها ، فِراخُ الذُّبابِ

ومنها[3] :

من شُهَيْدٍ في سِرِّها ، ثمَّ مِن أشْ
جَعَ في السّرِّ من لُبابِ اللُّبابِ[4]

خُطَباءُ الأنام ، إن عَنَّ خَطْبٌ ،
وأعاريبُ في مُتُونِ عِرابِ[5]

---

١ العرض : الجانب .

٢ النجر : الاصل . الفرس : الافتراس ، وكل قتل. ورواية اليتيمة : لبرص ، جمع ابرص .

٣ في الاصل : ومنها يفتخر .

٤ السر : الاصل ومحض النسب وافضله .

٥ العراب : الخيول العربية الكريمة ، السالمة من الهجنة .

حتى أكملتُها . فكأنَّما غشَّى وجهَ أبي الطَّبعِ قِطعةٌ من الليل . وكرَّ راجعاً الى ناوَرْدِه دون أن يُسلِّم . فصاح به زهير : أأجزْتَه ؟ قال : أجزتُه ، لا بورِكَ فيك من زائر، ولا في صاحِبك أبي عامر !

صاحب ابي نواس

فضرَب زُهيرٌ الأدهمَ بالسَّوط ، فسار بنا في قَنَنِه[1] ، وسِرنا حتى انتهَيْنا الى أصل جَبَلِ دَيرِ حَنَّة ، فشقَّ سَمعِي قَرْعُ النَّواقِيس ، فصِحْتُ : مِنْ مَنازِلِ أبي نواس ، ورَبِّ الكعبةِ العَلياء ! وسِرْنا نجتابُ أدياراً وكنائسَ وحانات ، حتى انتهَينا الى ديرٍ عظيمٍ تَعبَقُ روائِحُه ، وتَصُوكُ[2] نوافِحُه . فوقف زهير ببابه وصاح : سلامٌ على أهل ديرِ حَنَّة ! فقلتُ لزهير : أوَهل صِرنا بذات الأُكَيراح[3] ؟ قال : نعم . وأقبلَتْ نحونا الرُّهابِين ، مُشدَّدةً بالزنانير ، قد قَبَضَتْ على

---

١ القنن : سنن الطريق ، اي نهجه ، في الاصل : قنته ، وهو تصحيف .
٢ تصوك : تعبق .
٣ ذات الاكيراح : هو دير حنة . الاكيراح : تصغير اكراح ، مفردها كرح بالكسر ، وهي لفظة سريانية ، معناها الكوخ الصغير يكون حول الدير ، ويسكنه الراهب الذي لا قلاية له ، واللفظة وردت في شعر ابي نواس .

العَكاكيز ، بِيضَ الحواجِبِ واللّحى ، اذا نظروا الى المرء استحيا ، مكثِرين للتّسبيح ، عليهم هَدْيُ المسيح . فقالوا : أهلًا بكَ يا زهير من زائر ، وبصاحِبك أبي عامر ! ما بُغيَتُك ؟ قال : حُسَيْنُ الدّنان . قالوا : إنّه لفي شُرْب الخمرة ، منذُ أيّامٍ عشرة ، وما نُراكُما منتَفِعَين به . فقال : وعلى ذلك[1].

ونزلْنا وجاؤوا بنا الى بيتٍ قد اصطَفّت دِنانُه ، وعكفَتْ غِزلانه ، وفي فُرْجتِه شيخٌ طويلُ الوجهِ والسَّبَلة[2] ، قد افترشَ أضغاثَ زَهْر ، واتكأ على زِقّ خمْر ، وبيده طَرْجَهارة[3]، وحواليْه صِبْيةٌ كأظْبٍ[4] تعطُو الى عَرارة[5].

فصاح به زهير : حيّاكَ اللهُ أبا الإحسان ! فجاوبَ بجوابٍ لا يُعقَلُ لغَلَبةِ الخمرِ عليه . فقال لي زهير : اقرَعْ أذُنَ نشوته بإحدى خمريّاتِك ، فإنّه ربما تنبّه لبعض ذلك . فصِحْتُ أنشِدُ من كلمةٍ لي طويلة :

ولرُبَّ حانٍ قد أدَرتُ بدَيرِه
خمرَ الصِّبا مُزِجَتْ بصَفْوِ خُمُورِه[6]

---

١ وعلى ذلك : اي وعلى ذلك تريده او ما اشبه .

٢ السبلة : ما على الشارب من شعر .

٣ الطرجهارة : شبه كأس يشرب فيه .

٤ اظب : جمع ظبي .

٥ تعطو : ترفع رؤوسها الى الشجر لتتناول منها. العرارة: واحدة العرار ، وهو نبت ناعم اصفر طيب الريح .

٦ حان : في الاصل : خان .

في فِتْيَةٍ جَعَلُوا الزِّقاقَ تِكاءَهُم ،
مُتصاغِرِينَ تخشُّعاً لكبيرِهِ[1]

والَى عليَّ بطَرْفِهِ وبكَفِّهِ ،
فأمالَ مِنْ رأسي لِعَبٌ كبيرِهِ[2]

وتَرَنَّمَ النّاقُوسُ عِندَ صَلاتِهِمْ ،
ففَتَحْتُ من عَيني لِرَجعِ هَديرِهِ

يُهْدي إلينا الرّاحَ كلُّ مُعَصْفَرٍ ،
كالخِشْفِ خَفَّرَهُ التِماحُ خَفيرِهِ[3]

فصاح من حبائل نَشْوته : أأشْجَعِيٌّ ؟ قلتُ : أنا ذاكَ ! فاستدعى ماءً قَراحاً ، فشَرِب منه وغسَل وجهه ، فأفاقَ واعتذر إليَّ من حاله . فأدركتْني مَهابتُه ، وأخَذتُ في إجلاله لمكانه من العِلْم والشِّعر. فقال لي : أنشِدْ ، أو حتى أنشِدَك؟ فقلت : إنَّ ذلك لأشَدُّ لتأنيسي ، على أنه ما بعدكَ لمُحسنٍ إحسانٌ . فأنشد :

---

١ التكاء : اراد به المتكأ اي موضع اتكائهم ، وهو غير وارد . كبيره: كبير الدير ، اي عظيمه ورئيسه .
٢ كبيره : اي القدح الكبير .
٣ كل معصفر : اي كل ذي معصفر ، اي ثوب مصبوغ بالعصفر ، وهو نبت يصبغ به صبغ أصفر. خفره : اي جعله يحمر حياء . الخفير : الحامي والمحافظ .

يا ديرَ حَنّةَ من ذاتِ الأُكَيْراحِ ،
مَن يَصحُ عنكَ فإنّي لَستُ بالصّاحي[1]

يَعتادُهُ كلُّ مَحفُوفٍ مَفارِقُهُ
منَ الدِّهانِ ، عَليهِ سَحقُ أمساحِ[2]

لا يَدلِفُونَ الى ماءٍ بآنِيَةٍ ،
إلاّ اغتِرافاً منَ الغُدرانِ بالرّاحِ

فكدتُ واللهِ أخرُجُ من جِلدي طَرَباً . ثم أنشَدَ :

طَرَحتُم من التّرحالِ أمراً فَغَمَّنا[3]

وأنشَدَ أيضاً :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزدادُ طِيبَ نَسيمِ ،
على طُولِ ما أقوَتْ ، وحُسنَ رُسُومِ[4]

---

١ هذه الابيات لابي نواس في وصف رهبان دير حنة .
٢ يعتاده : ينتابه . المحفوف : البعيد العهد بالدهان . الدهان : الطيب . السحق : الثوب البالي . الامساح : جمع مسح بالكسر ، وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان .
٣ امراً : في ديوان ابي نواس : ذكراً . وتمام البيت : فلو قد شخصتم صبح الموت بعضنا .
٤ طول : في الاصل طيب ، والتصحيح عن الديوان . اقوت : اقفرت . حسن رسوم، مكانها في الديوان موضع طيب نسيم، وهذه مكانها موضع حسن رسوم.

تَجافى البِلى عَنهُنَّ حَتّى كأنَّما
لبِسْنَ، من الإقواءِ، ثَوبَ نَعيمِ[١]

واستمرَّ فيها حتى أكملَها. ثم قالَ لي: أنشِد. فقُلتُ: وهَل أبقَيتَ للإنشاد موضِعاً؟ قال: لا بُدَّ لكَ، وأوعِثْ بي ولا تُنجِد[٢]. فأنشدتُه:

أصَباحٌ شِيمَ أمْ بَرقٌ بَدا،
أم سَنا المَحبوبِ أورى أزْندا[٣]

هَبَّ مِنْ مرقَدِه مُنكَسِراً،
مُسْبِلاً للكُمِّ، مُرْخٍ لِلرِّدا

يَمْسَحُ النَّعسَةَ مِنْ عَينَيْ رَشاً،
صائدٍ في كلِّ يَومٍ أسَدا

قُلتُ: هَبْ لي يا حَبيبي قُبلَةً،
تَشْفِ مِنْ عَمِّكَ تَبريحَ الصَّدى[٤]

---

١ الاقواء: خلوا الدار، وقوله من الاقواء: رواية الديوان: على الاقواء.

٢ اوعث: اي سر في المكان السهل. لا تنجد: لا تسر في النجد، اي المكان المرتفع.

٣ أصباح: في الاصل: أصفيح، والتصحيح عن مطمح الانفس للفتح بن خاقان. شيم: من شام، اي نظر.

٤ من عمك: في الاصل: من غمك، والتصحيح عن مطمح الانفس. الصدى: العطش.

فانثنى يهتزُّ من منكبِهِ ،
قائلاً : لا ! ثمَّ أعطاني اليدا

كلّما كلّمني قبّلتُه ،
فهوَ إمّا قالَ قولاً ردّدا

كادَ أنْ يزجرَ ، من لثمي له
وارتشافي الثغرَ منهُ ، أدردا[1]

قالَ لي يلعبُ : خُذْ لي طائراً ،
فتراني الدهرَ أجري بالكُدى[2]

وإذا استنجزتُ يوماً وعدَه ،
قالَ لي يمطُلُ : ذكّرني غدا

شربتْ أعطافُه خمرَ الصِّبا ،
وسقاهُ الحُسنُ حتّى عربدا

وإذا بتُّ به ، في روضةٍ ،
أغيداً يعرو نباتاً أغيدا[3]

---

١ الادرد : من ذهبت اسنانه .

٢ الكدى : جمع الكدية ، وهي الارض الصلبة الغليظة . والجري بالكدى يراد به الظفر والنجاح .

٣ يعرو : يقصد . في مطمح الانفس : يقرو ، اي يقصد ويتتبع .
الاغيد : من مالت عنقه ، ولانت اعطافه ، ومن النبات الناعم المتثني .

قامَ في اللّيلِ بجيدٍ أتلعٍ،
ينفضُ اللمّةَ مِنْ دمعِ النّدى

رَشَأٌ، بَلْ غادةٌ ممكورةٌ
عمّمَتْ صُبحاً بليلٍ أسودا[1]

أحّحَتْ مِنْ عضّتي في نهدِها،
ثمّ عضّتْ حرَّ وجهي عمدا[2]

فأنا المجروحُ منْ عضّتِها،
لا شفاني اللهُ مِنها أبدا!

فلمّا انتهيتُ قال: لله أنت! وإنْ كان طبعكُ مخترَعاً منك. ثمّ قالَ لي: أنشدْني من رِثائك شيئاً. فأنشدتُه من قولي في بُنيّةٍ صغيرة:

أيّها المعتَمِدُ في أهلِ النُّهى،
لا تَذُبْ، إثرَ فقيدٍ، وَلَهَا

حتى انتهيتُ الى قولي:

وإذا الأُسْدُ حمَتْ أغيالَها،
لَمْ يَضُرَّ الخِيسَ صَرعاتُ المَها[3]

---

١ الممكورة: المدمجة الخلق والمستديرة الساقين.
٢ أححت: اي قالت: أح، حكاية صوت.
٣ الخيس: عرين الاسد، كالغيل.

وغريبٌ يا ابنَ أقمارِ العُلا ،
أن يُراعَ البَدْرُ مِنْ فَقْدِ السُّها

فلمّا انتهيتُ قال لي : أنشِدْني مِن رِثائك أشَدَّ مِنْ هذا وأفصح . فأنشَدْتُه مِنْ رِثائي في ابنِ ذَكْوانَ[1] . ثُمَّ قال : أنشِدْني جَحْدَريَّتَكَ[2] مِنَ السِّجن ؛ فأنشَدتُه :

قَريبٌ بمُحْتَلِّ الهَوانِ بَعيدُ[3]

حتى انتهيتُ فيها الى قولي :

فإنْ طالَ ذِكْري بالمُجُونِ فإنَّني
شَقِيٌّ بمَنْظُومِ الكلامِ سَعيدُ

---

١ هو القاضي ابن ذكوان رثاه ابن شهيد بقصيدة اولها :
ظننـا الذي نادى محقاً بموته ، لعظم الذي أنحى من الرزء ، كاذبا
٢ جحدريتك : نسبة الى جحدر ، وهو رجل من بني جشم بن بكر كان يخيف السبيل بأرض اليمن ، فبلغ خبره الحجاج ، فشدد في طلبه حتى ظفر به ، فأمر بحبسه ، فحبس . فنظم في سجنه قصيدة جميلة يرثي بها نفسه ، ويحن الى بلاده ، ويستعطف الحجاج بقوله :
أحاذر صولة الحجاج ظلماً ، وما الحجاج ظلام لجـان
فبلغ شعره الحجاج ، فأحضره بين يديه ، وقال : أيما احب اليك ، ان اقتلك بالسيف ، او ألقيك للسباع ؟ فقال : اعطني سيفاً ، وألقني للسباع . فأعطاه سيفاً ، وألقاه الى اسد مجوع ، فزأر الاسد ، وتلقاه جحدر بالسيف ففلق هامته . فاعجب به الحجاج ، واكرمه وجعله من اصحابه .
٣ تمام البيت عن مضمح الانفس : يجود ، ويشكو حزنه ، فيجيد .

وهل كنتُ في العُشّاقِ أوّلَ عاشِقٍ ،
هَوَتْ بحِجاهُ أعيُنٌ وخُدُودُ ؟[1]

فمَنْ مُبْلِغُ الفِتْيانِ أنّيَ بَعْدَهُم
مُقيمٌ بـــدارِ الظّالِمينَ طَريدُ[2]

ولستُ بـذي قَيْدٍ يَرِقُّ ، وإنّما
على اللحظِ من سُخْطِ الإمامِ قُيودُ[3]

فبكى لها طويلاً . ثم قال : أنشِدْني قطعةً من مجونِك ، فقد بعُدَ عهدي بمثلِك . فأنشدْتُه[4] :

وناظِرَةٍ تحتَ طيِّ القِنـــاعِ ،
دعاها الى اللهِ والخيرِ داعِ

سَعَتْ بِابنِها تَبْتَغِي مَنزِلاً ،
لِوَصْـــلِ التَّبَتُّلِ والانقِطاعِ

---

١ اول عاشق : في مطمح الانفس : اول عاقل .
٢ طريد : في المطمح : وحيد .
٣ يرق : في المطمح : يرث .
٤ قال الفتح بن خاقان في المطمح ما ملخصه : قعد الوزير ابو عامر بن شهيد ، بباب الصومعة من الجامع في لمة من الاخوان ، فمرت جارية من أعيان أهل قرطبة ، معها من جواريها من يسترها ويواريها ، وهي ترتاد موضعاً لمناجاة ربها ، منتقبة خائفة ممن يرقبها ، وأمامها طفل لها ، فلما وقعت عينها على أبي عامر ، ولت سريعة خيفة ان يشبب بها ، أو يشهرها باسمها ، فلما نظرها قال هذه الابيات ، ففضحها بها وشهرها .

فجاءَتْ تَهادَى كمِثلِ الرَّؤومِ،
تُراعي غزالاً بأعلى يَفاعِ[1]

أتَتْنا تَبَخْتَرُ في مَشْيِها،
فحلَّتْ بِوادٍ كثيرِ السِّباعِ

ورِيعَتْ حِذاراً على طِفْلِها،
فنادَيتُ: يا هذهِ لا تُراعي!

فوَلَّتْ وللمِسْكِ مِن ذَيلِها،
على الأرضِ، خطٌّ كظَهْرِ الشُّجاعِ[2]

فلما سمع هذا البيتَ قامَ يرقُص به ويردِّده، ثم أفاق، ثم قال: هذا واللهِ شيءٌ لم نُلهَمْهُ نحن. ثم استدناني فدنَوتُ منه فقبَّلَ بَينَ عينَيَّ، وقال: اذهَبْ فإنَّكَ مُجاز. فانصرفنا عنه وانحدرنا مِنَ الجبل.

صاحب ابي الطيب

فقالَ لي زُهَير: ومَن تُريدُ بعد؟ قلتُ له: خاتِمةَ

---

١ الرؤوم: العاطفة على ولدها، والمراد بها الظبية. بأعلى يفاع: في نفح الطيب: بروض البقاع.

٢ الشجاع: ذكر الحية.

القَومِ صاحِبَ أبي الطَّيِّب ؛ فقال : اشْدُدْ لهُ حيازِيمَك[1] ، وعطِّرْ له نَسيمَك ، وانثُرْ عليهِ نُجومَك . وأمالَ عِنانَ الأدْهَمِ الى طَريقٍ ، فجَعَلَ يَرْكُضُ بنا ، وزُهَيرٌ يتأمَّلُ آثارَ فَرَسٍ لمَحناها هناك . فقلتُ له : ما تتبُّعُكَ لهذه الآثار ؟ قالَ : هي آثارُ فرسِ حارِثةَ بنِ المُغَلِّس صاحِبِ أبي الطَّيِّب ، وهو صاحِبُ قَنَص . فلم يزل يتقرَّاها حتى دفَعْنا[2] الى فارسٍ على فرسٍ بَيضاء كأنَّه قَضيبٌ على كَثيب ، وبيَدِهِ قَناةٌ قد أسندَها الى عُنقِه ، وعلى رأسه عِمامةٌ حمراء ، قد أرخى لَها عَذَبةً[3] صفراء . فحَيَّاه زُهَير ، فأحسَنَ الرَّدَّ ناظراً من مقلةٍ شَوساء[4] ، قد مُلِئَت تِيهاً وعُجباً . فعرَّفَه زُهَيرٌ قَصدي ، وألقى إليه رَغبَتي . فقال : بلَغَني أنَّه يتَناوَل[5] ؛ قلتُ : للضَّرورة الدافِعة ، وإلاّ فالقَريحةُ غيرُ صادِعَة[6] ، والشَّفْرة غيرُ قاطعة . قال : فأنشِدني ؛ وأكبَرتُه أن أستَنشِدَه ، فأنشدتُه قصيدَتي التي أوَّلُها :

---

١ الحيازيم : جمع الحيزوم ، وهو ما استدار بالظهر والبطن ، يقال : شد للامر حيازيمه ، اي استعد له وتهيأ .

٢ دفعنا : اي دفعنا فرسنا ، اصطلحوا في هذا الفعل على حذف المفعول .

٣ العذبة : طرف العمامة يسيل من خلفها .

٤ مقلة شوساء : اي عين ناظرة بمؤخرها تكبراً ، أو تغيظاً .

٥ يتناول : اي يأخذ عن غيره ، او يأخذ الأشياء القريبة المنال .

٦ قريحة صادعة : اي قاطعة او مشرقة نيرة .

أبَرقٌ بَدا أمْ لَمعُ أبْيَضَ قاصِلِ[1]

حتى انتهيتُ فيها الى قَولي :

تَرَدَّدَ فيها البَرقُ حتّى حَسِبتُهُ
يُشيرُ الى نَجمِ الرُّبى بالأنامِلِ

رُبًى نَسَجَتْ أيْدي الغَمامِ لِلُبسِها
غَلائلَ صُفْراً ، فَوقَ بِيضِ غَلائِلِ

سَهِرتُ بِها أرعى النُّجُومَ وأنجُماً
طَوالِعَ للرّاعِينَ ، غيرَ أوافِلِ[2]

وقَد فَغَرَتْ فاها بها كلُّ زَهرَةٍ ،
الى كلِّ ضَرعٍ للغَمامَةِ حافِلِ

ومَرَّتْ جُيُوشُ المُزنِ رَهواً ، كأنَّها
عَساكِرُ زَنجٍ مُذهَباتُ المَناصِلِ[3]

وحَلَّقَتِ الخَضراءُ في غُرِّ شُهْبِها ،
كَلُجَّةِ بَحرٍ كُلِّلَتْ بالبَعالِلِ[4]

---

١ قاصل : قاطع ، وتمام البيت عن اليتيمة : ورجع شداء ام رجع اشقر صاهل.
٢ وأنجماً : أي أنجم زهر الربى ، من أصفر وأبيض .
٣ رهواً : اي متتابعة .
٤ الخضراء: السماء. البعالل: جمع بعلول، وهو السحاب الأبيض، او القطعة منه.

تَخالُ بها زُهْرَ الكَواكِبِ نَرجساً،
عَلى شَطِّ وادٍ للمَجَرَّةِ سائِلِ

وتلْمَحُ مِنْ جَوزائِها في غُرُوبِها
تَساقُطَ عَرشٍ واهِنِ الدِّعْمِ مائلِ

وتَحْسَبُ صَقراً واقِعاً دَبَرانَها،
بِعُشِّ الثُّرَيّا فَوقَ حُمرِ الحَواصِلِ[1]

وبَدرَ الدُّجى فيها غَديراً، وحولَهُ
نُجُومٌ كَطَلعاتِ الحَمامِ النَّواهِلِ

كأنَّ الدُّجى هَمّي، ودَمعي نُجُومُهُ،
تَحَدَّرُ إشفاقاً لِدَهْرِ الأراذِلِ[2]

هَوَتْ أنجُمُ العَلْياءِ إلاَّ أقلَّها،
وغُبِنَّ بما يَحظى بهِ كلُّ عاقِلِ

وأصبَحْتُ في خَلْفٍ اذا ما لَمَحْتُهُم
تبَيَّنْتُ أنَّ الجهلَ إحدى الفضائلِ[3]

---

١ الدبران : منزل للقمر ، مشتمل على خمسة كواكب في برج الثور. الحواصل: جمع حوصلة ، وهي من الطائر بمنزلة المعدة للانسان ، وفيها مراعاة النظير لعش الثريا .

٢ اشفاقاً : خوفاً وشفقة .

٣ الخلف بالتسكين : بمعنى الخلف بالتحريك ، ولكنها تختص بخلف السوء .

وما طابَ في هذي البَريَّةِ آخرٌ،
إذا هو لم يُنْجَدْ بطيبِ الأوائلِ

أرى حُمُراً فوقَ الصَّواهِلِ جمَّةً،
فأبكي بعَيْنَي ذلَّ تلك الصَّواهِلِ[1]

ورُبَّتَ كُتَّابٍ اذا قيلَ: زوِّروا،
بكَتْ مِنْ تأنِّيهم صُدورُ الرَّسائلِ[2]

ونافِلِ فِقْهٍ لم يَرَ اللهَ قلبُه،
يَظُنُّ بأنَّ الدِّينَ حِفْظُ المَسائلِ

وحامِلِ رُمْحٍ راحَ، فوقَ مَضائهِ،
به كاعِباً في الحيِّ ذاتَ مغازلِ[3]

حُبُوا بالمُنى دوني، وغُودِرْتُ دونَهم
أرُودُ الأماني في رياضِ الأباطِلِ

وما هي إلاَّ هِمَّةٌ أشجَعِيَّةٌ،
ونَفْسٌ أبَتْ لي من طِلابِ الرَّذائلِ

---

١ حمراً : جمع حمار ، والمراد فرسان كالحمر .
٢ زوروا : يقال زور الحديث : ثقفه وازال زوره اي اعوجاجه ، والشيء قومه وحسنه
٣ الكاعب: الجارية تتأنهدها . والمراد ان حامل الرمح يشبه جارية تحمل مغزلا .

وفيهم لو البرجيسُ جئتُ بجَدِّهِ،
إذاً لتلقّاني بنحسِ المُقاتِلِ[1]

ولمّا طما بحرُ البيانِ بفكرتي،
وأغرقَ قرنَ الشمسِ بعضُ جداولي

رَحلتُ الى خيرِ الورى كلَّ حُرّةٍ
مِن المدحِ، لم تَخمُلْ برعْيِ الحمائلِ[2]

وكِدتُ لِفَضْلِ القولِ أبلُغُ ساكتاً،
وإنْ ساءَ حُسّادي مدى كلِّ قائلِ

فلمّا انتهيتُ قال: أنشِدْني أشدَّ من هذا. فأنشدتُه قصيدتي:

هاتِيكَ دارُهُمُ فقِفْ بِمَعانِها[3]

فلمّا انتهيتُ، قال لزهير: إن امتدَّ به طَلَقُ العُمرِ[4]، فلا بُدَّ أن ينفثَ بدُرَر، وما أُراه إلاّ سيُحتضَر، بين قريحةٍ كالجمْر، وهِمّةٍ تَضعُ أخمَصَه على مَفرِقِ البدْر.

---

١ البرجيس: المشتري، وهو كوكب سعد. جده: حظه. المقاتل: اراد به المريخ، وهو كوكب الحدة والحرب
٢ رعي الحمائل: اراد به التكسب بالمدح.
٣ معانها: منزلها. وتمام البيت: تجد الدموع تجد في هملانها.
٤ الطلق: الغاية، والحبل المفتول، وكلاهما صالح للمعنى.

فقلت : هلاّ وضعْتَه على صَلْعَةِ النّسر[1] ! فاستضحكَ إليّ وقال : اذهب فقد أجزتُك بهذه النّكتة . فقبّلتُ على رأسه وانصرفنا .

١ النسر : الطائر المعروف ، وكوكبان ، احدهما النسر الواقع والآخر النسر الطائر ، فكلامه فيه تورية ، وفيه مجاز أيضاً ، فقوله صلعة النسر ، اي نسر الشعراء ، ويريد به صاحب المتنبي .

الفصل الثانى

توابع الكتاب

صاحبا الجاحظ وعبد الحميد

فقال لي زهير : مَن تريد بعدَه ؟ فقلت : مِلْ بي الى الخُطباء ، فقد قضيتُ وطَراً من الشعراء . فركضنا حيناً طاعنين في مَطلَع الشمس ، ولقينا فارساً أسرع الى زهير ، وانجزعَ عنا[1] ، فقال لي زهير : جُمِعتْ لكَ خُطباءُ الجِنّ بِمَرْج دُهمان ، وبيننا وبينهم فرسخان ، فقد كُفيتَ العَناءَ إليهم على انفرادِهم . قلت : لِمَ ذاك ؟ قال : للفَرْقِ بين كلامَين اختلفَ فيه فتيانُ الجِنّ .

وانتهينا الى المَرْج فإذا بنادٍ عظيم ، قد جمعَ كلَّ زعيم ،

---

١ انجزع عنا : اي انقطع عنا .

فصاح زُهير : السلامُ على فُرسانِ الكلام . فردُّوا وأشاروا بالنُّزُول. فأفرَجوا حتى صِرنا مركزَ هالةِ مجلِسهم ، والكلُّ منهم ناظرٌ الى شيخٍ أصلع ، جاحظِ العينِ اليُمنى ، على رأسِهِ قَلَنسُوَةٌ بيضاءُ طويلة . فقلتُ سِرّاً لزهير : مَنْ ذلك ؟ قال : عُتبةُ بن أرقم صاحبُ الجاحِظ ، وكُنيَتُه أبو عُيَينة . قلتُ : بأبي هو ! ليس رغبتي سِواه ، وغيرَ صاحبِ عبدِ الحميد. فقال لي : إنه ذلك الشيخُ الذي الى جنبه . وعرَّفه صَغْوي إليه[1] وقولي فيه . فاستدناني وأخذ في الكلام معي ، فصمَتَ أهلُ المجلِس ، فقال : إنك لخطيب ، وحائكٌ للكلام مُجِيد ، لولا أنَّك مُغرًى بالسَّجع ، فكلامُك نظمٌ لا نثر .

فقلتُ في نفسي : قرعَكَ ، باللهِ ، بقارعَتِه ، وجاءك بمُماثَلَتِه[2]. ثم قلت له : ليسَ هذا ، أعزَّك الله ، منّي جهلًا بأمرِ السَّجع ، وما في المماثلَة والمقابلةِ[3] من فَضْل ، ولكنّي عدِمتُ ببلدي

---

١ صغوي اليه : ميلي اليه .

٢ المماثلة : هي ان تكون الفاظ الفواصل والقرائن في الكلام المنثور متفقة في الوزن لا في التقفية نحو : وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم. او قول الجاحظ : من مدحه بالخير والشر ، وبالحمد والذم، حتى ذكر في القرآن مرة بالحمد، ومرة بالذم .

٣ المقابلة : هي ان يؤتى بمتعدد من المتوافقات ، ثم يؤتى بما يقابله من الأضداد على الترتيب ، مثل قول الشاعر :

اذكى وأوقد للعداوة والقرى   ثارين : نار وغى ، ونار زناد

فُرْسانَ الكلام ، ودُهيتُ بغبـاوةِ أهل الزمان ، وبالحَرَا[1] أن أحرّكَهم بالازدواج . ولو فرَشْتُ للكلامِ فيهم طَولقاً[2]، وتحركت لهم حركةَ مَشُوْلم[3] ، لكان أرفعَ لي عنـدَهم ، وأولجَ في نفوسِهم .

فقال : أهذا على تلك المناظر ، وكِبَرِ تلك المَحابر ، وكمال تلك الطيالِس ؟ قلتُ : نعم ، إنّها لِحاءُ الشجر[4] ، وليس ثَمّ ثَمرٌ ولا عَبَق . قال لي : صَدقتَ ، إني أراكَ قد ماثلْتَ[5] معي . قلت : كما سمعتَ. قال : فكيف كلامُهم بينَهم ؟ قلت : ليس لسيبويهِ فيـه عمَل ، ولا للفراهيدي[6] إليه طريق ، ولا للبَيانِ عليه سِمة . إنّما هيَ لُكنةٌ أعجَميّةٌ يُؤدُّون بها المعـانيَ تأديةَ المَجوس والنَّبَط . فصاحَ : إنّا لله ، ذهبت العربُ وكلامُها ! ارمِهِمْ يا هذا بسَجعِ الكُهّان ، فعَسى أنْ ينفعَكَ عنـدَهم ، ويُطيرَ لك ذِكْراً فيهم . وما أراكَ ، مع

---

١ بالحرا : يقال : بالحرا ان يكون ذلك ، اي بالخليق .

٢ الطولق : نبات .

٣ مشولم : لعله مشولين كمسوقين ، اي فتيان ، واحده مشول كمقعد ، كما في معجم دوزي ، وهو اصطلاح مغربي ، أو لعله شولم ، اشارة الى الرقية التي خدع الغبي بها اللصوص في كليلة ودمنة .

٤ اللحاء : القشر .

٥ ماثلت : اتيت بالمماثلة .

٦ الفراهيدي : اي الخليل .

ذلك ، إلاَّ ثقيلَ الوطْأةِ عليهم ، كَريهَ المَجيءِ إليهم .

فقال الشيخ الذي الى جانبِه ، وقد علمتُ أنّه صاحبُ عبد الحميد ، ونفسي مرتقِبةٌ الى ما يكون منه : لا يَغرَّنّكَ منه ، أبا عُيَيْنةَ ، ما تكلّفَ لك من المُماثلة ، إنَّ السَّجعَ لَطبعُه ، وإنَّ ما أسمَعَك كُلْفَة . ولو امتدَّ به طَلَقُ الكلام ، وجرت أفراسُه في مَيْدان البَيان ، لصلَّى كَودَنُه[1] وكَلَّ بُرثُنُه . وما أراهُ إلاَّ من اللُّكْنِ الذين ذَكَر ، وإلاَّ فما للفصاحةِ لا تَهدِر ، ولا للأعرابيّةِ لا تُومِض ؟

فقلتُ في نفسي : طبعُ عبدِ الحميد ومساقُه ، وربِّ الكعبة ! فقلتُ له : لقد عجِلْتَ ، أبا هُبَيرة ، — وقد كان زهيرٌ عرَّفني بكُنْيَتِه — إنَّ قوسَكَ لَنَبْع[2] ، وإنَّ ماءَ سَهْمِكَ لَسُمّ ، أحِماراً رميتَ أم إنساناً ، وقَعْقَعةً طلبْتَ أم بَياناً ؟ وأبيك ، إنَّ البيانَ لَصَعْب ، وإنك منه لفي عباءةٍ تتكشَّفُ عنها أسْتاهُ مَعانيك ، تكشُّفَ استِ العنْزِ عن ذَنَبِها . الزمانُ دِفءٌ لا قُرّ ، والكلامُ عراقيٌّ لا شاميّ[3] . إني لأرى

---

١ صلى : اتى الفرس في الرهان بعد السابق . الكودن : الفرس الهجين .

٢ النبع : شجر صلب تصنع منه القسي .

٣ عراقي لا شامي : تعريض بعبد الحميد لانه شامي والجاحظ عراقي .

من دَمِ اليَربُوعِ[1] بكَفَّيْكَ، وألسَحُ من كُشَى[2] الضَّبِّ على ماضِغَيْكَ. فتبسَّم إليَّ وقال: أهكذا أنتَ يا أُطَيْلِس[3]، تركَبُ لكلِّ نهْجَه، وتَعِجُّ اليه[4] عَجَّه؟ فقلتُ: الذِّئبُ أطلَس، وإنَّ التَّيْسَ ما عَلِمْتَ!

فصاح به أبو عُيَيْنَةَ: لا تعرِضْ له، وبالحَرا أن تَتخلَّصَ منه. فقلت: الحمْدُ لله خالقِ الأنامِ في بطونِ الأنعام[5]! فقال: إنَّها كافيةٌ لو كان له حِجْر[6]. فبَسَطاني وسألاني أن أقرأ عليهما من رسائِلي، فقرأتُ رسالتي في صِفة البَرْدِ والنارِ والحطَب فاستحسناها.

---

١ اليربوع: نوع من الفار طويل الرجلين، قصير اليدين، وله ذنب كذنب الجرذ يرفعه صعداً، في طرفه شبه النوارة، ولونه كلون الغزال، يصطاده الاعراب ويأكلونه.

٢ الكشى: جمع الكشية بالضم، شحمة بطن الضب او اصل ذنبه، يأكلها الاعراب، ومنه قولهم: اطعم أخاك كشية الضب، وهو حث على المؤاساة، وقيل بل هزء به. والمراد بذلك انه يعير عبد الحميد ببداوة تعبيره لانه شامي وليس كالجاحظ العراقي حضري التعبير.

٣ الاطيلس: تصغير الاطلس، وهو الذئب الامعط في لونه غبرة الى سواد، والرجل اذا رمي بقبيح، والسارق.

٤ عج اليه: صاح ورفع صوته، والمراد بذلك انه يسلك طريقه، ويجري على اسلوبه.

٥ الانعام: الابل.

٦ الحجر: العقل.

رسالة الحلواء*

ومن رسالتي في الحلواء حيث أقول :

خرجتُ في لُمَّةٍ[1] من الأصحاب ، وثُبَةٍ[2] من الأتراب ، فيهم فقيهٌ ذو لَقَم[3] ، ولم أعرِفْ بـه ، وغَريم[4] بطنٍ ، ولم أشعُرْ له[5] ، رأى الحلوى فاستخفَّه الشَّرَه ، واضطرَب به الوَلَه ، فـدار في ثيابه ، وأسالَ من لُعابِه ، حتى وقَفَ بالأكداس[6] وخالطَ غمارَ النَّاس[7] ، ونظر الى الفالُوذَج[8] فقال : بأبي هذا المُمْنص[9] ، انظُروه كأنه الفَصّ ؛ مُجاجَةُ الزنابير[10] ، أُجرِيَتْ على شوابير[11] ، وخالَطها لبابُ الحَبَّة ،

---

* تختلف رواية الذخيرة لرسالة الحلواء عن رواية يتيمة الدهر بعض الاختلاف .

١ اللمة بالضم : الصاحب او الاصحاب في السفر ، والمؤنس ، للواحد والجمع .

٢ الثبة : الجماعة .

٣ اللقم : سرعة الاكل .

٤ الغريم : صاحب الدين يطالب به مديونه ، والمديون الذي يطالبه صاحب الدين .

٥ شعر له : فطن له ، على التضمين .

٦ الاكداس : اي انواع الطعام .

٧ غمار الناس : لفيفهم وجمعهم المتكاثف .

٨ الفالوذج : حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل .

٩ الممص : الفالوذج .

١٠ مجاجة الزنابير : اي ريق النحل .

١١ شوابير : لم نجد له ذكراً في ما بين ايدينا من المعجمات ، الا معجم دوزي ويظهر ان المراد به قطع لها شكل الزاوية ، كتقطيع الفالوذج ، وغيره من الحلواء .

فجاءتْ أعذبَ من ريق[1] الأحبّة .

ورأى الخَبيص[2] فقال : بأبي هذا الغالي الرّخيص ، هذا جليدُ سماءِ الرّحمة ؛ تمخّضتْ به فأبرزتْ منه زُبْدَ النّعْمة ، يُجرَحُ باللّحظ ، ويذوبُ من اللّفظ . ثم ابيضّ ، فقالوا بماء البَيض[3] البضّ ، قال : غضٌّ من غضّ ، ما أطيبَ خلْوةَ الحبيب ، لولا حضْرةُ الرّقيب !

ولمحَ القُبَيْطاء[4]، فصاح : بأبي نُقْرةُ[5] الفضّة البيضاء ، لا تَرُدُّ عن العَضّة . أبِنارٍ طُبِخَتْ أم بِنُور ؟ فإني أراها كقِطَعِ البَلّور ؛ وبلوزٍ عُجِنتْ أم بِجَوز ؟ فإني أراها عينَ عَجينِ الموز . ومشى إليها وقد عدّل صاحبُها أرطالَ نُحاسِه ، وعلّق قِسطاسَه[6] مِنْ أمّ راسِه ؛ فقال : رِطْلٌ بدرهمَين ، وانتهشَها بالنّابَين ، فصاحَ : القارعة[7] ما القارعة ؟!

---

١ ريق : في الاصل ألسنة ، والتصحيح عن يتيمة الدهر .
٢ الخبيص : حلواء تصنع من العسل والدقيق ، او من التمر والسمن ، او من الدبس والارز .
٣ ماء البيض : اي زلال البيض .
٤ القبيطاء : الناطف ، وهي الحلوى البيضاء التي تؤكل مع السنبوسق ، وتعرف عندنا بكرابيج حلب .
٥ النقرة : القطعة المذابة من الذهب او الفضة .
٦ القسطاس : الميزان .
٧ القارعة : اي القيامة التي تقرع القلوب باهوالها .

هِيهِ[1] ! ويلٌ للمرءِ منْ فيه !

ورأى الزّلابِيَة ، فقال : ويلٌ لأمّها الزانية ، أبأحشائي نُسِجَتْ ، أم مِنْ صِفاقِ قلبي[2] أُلفَتْ ؟ فإني أجدُ مكانَها مِنْ نفسي مكيناً ، وحَبْلَ هواها على كَبِدي متيناً ، فمن أين وصلتْ كفُّ طابخِها الى باطِنِي ، فاقتطَعَتْها من دواجِني[3] ؟ والعزيزِ الغفّار ، لأطلُبَنّها بالثّار ! ومشى إليها ، فتلمّظ[4] له لسانُ الميزان ، فأجفَلَ يصيحُ : الثّعبانَ الثّعبان !

ورُفع له تمرُ النّشا[5] ، غيرَ مَهْضُوم الحَشا ، فقال : مَهْيَم[6] ! من أينَ لكم جَنى نخلةِ مَريم[7] ؟ ما أنتم إلاّ السّحّار ، وما جزاؤكم إلاّ السّيفُ والنّار. وهمّ أن يأخذَ منها . فأثبتَت[8] في صدرِه العَصا ، فجلس القرْفُصا ، يُذري الدّموع ، ويُبدي الخُشُوع . وما منّا أحد إلاّ عن الضّحِك قد تجلّد. فرقّتْ

---

١ هيه : كلمة استزادة ، او كلمة تقال لشيء يطرد .
٢ صفاق القلب : اي غشاؤه .
٣ دواجني : اي احشائي التي الفت باطني .
٤ تلمظ : اي خرج لسانه وتحرك .
٥ تمر النشا : الظاهر انه حلواء تصنع من التمر والنشا .
٦ مهيم : اسم فعل للامر ، ومعناه اخبرني .
٧ نخلة مريم : اشارة الى الآية في سورة مريم : « وهزي اليك بجذع النخلة ، تساقط عليك رطباً جنياً . »
٨ فاثبت : الضمير يعود الى الحلواني .

له ضُلوعي ، وعلمتُ أنَّ اللهَ فيه غيرُ مُضيعي . وقد تَجمُل الصَّدقةُ على ذوي وَفْر ، وفي كلِّ ذي كَبِدٍ رَطْبةٍ أجْر. فأمرْتُ الغلامَ[1] بابتياع أرطالٍ منها تجمَعُ أنواعَها التي أنطقتْه وتحتوي على ضُروبها التي أضرَعتْه[2]، وجاء بها وسِرنا الى مكانٍ خالٍ طيّب ، كوصف المُهلَّبي[3]:

خانٌ تَطيبُ لِباغي النُّسْكِ خَلوَتُه،
وفيه سَترٌ على الفُتّاكِ إنْ فتكُوا[4]

فصبَّها رَطْبةَ الوُقوع ، كراديسَ كقِطَعِ الجُذوع ؛ فجعلَ يقطَعُ ويبلَعُ، ويَدحُو[5] فاه ويَدفَع، وعَيناه تَبِصّان كأنهما جَمْرتان ، وقد برَزَتا على وجهِه كأنّهما خصيَتان ، وأنا أقولُ له : على رِسْلِكَ أبا فلان! البِطنةُ تُذهِبُ الفِطنة ! فلمّا التَقَمَ جُمْلةَ جَماهيرِها ، وأتى على مآخيرِها ، ووصَل خوَرْنقها بسَديرِها[6]، تَجشّأ فهبَّت منه ريحٌ عَقيم[7]، أيقَنّا

---

١ الغلام : في الاصل الحلواني ، والتصحيح عن يتيمة الدهر .
٢ اضرعته : اذلته .
٣ المهلبي : هو ابو محمد المهلبي الشاعر ، وزير معز الدولة بن بويه .
٤ الفتاك : اصحاب المجون .
٥ يدحو : يبسط .
٦ الخورنق والسدير : قصران في الحيرة للنعمان الاكبر ، وقيل السدير ، موضع في الحيرة او نهر .
٧ ريح عقيم : اي لا تلقح سحاباً ولا شجراً .

لها بالعَذابِ الأليم . فنَثَرَتْنا شَذَرَ مَذَر ، وفرَّقتْنا شَغَر بَغَر[1] ، فالتَمَحْنا منه الظَّرِبان[2] ، وصدَّق الخَبَرَ فيه العِيانُ : نَفَحَ ذلك فشَرَّد الأنعام[3] ، ونَفَخَ هذا فبَدَّد الأنام ، فلم نَجْتَمِع بعدَها ، والسَّلام .

فاستَحْسَناها ، وضحِكا عليها ، وقالا : إنَّ لسَجْعِكَ موضِعاً من القلب ، ومكاناً من النفس ، وقد أعرتَه مِنْ طَبْعك ، وحَلاوةِ لَفظك ، وملاحةِ سَوقك ، ما أزال أفْنَه[4] ، ورفَع غَبْنَه[5] ، وقد بلَغَنا أنَّك لا تُجازَى في أبناءِ جِنسك ، ولا يُملُّ من الطَّعْن عليك ، والاعتراض لك . فمَنْ أشَدُّهم عليك ؟ قلت : جارانِ دارُهما صَقَب[6] ، وثالثٌ نابَتْه نُوَب ، فامتَطى ظَهْرَ النَّوى ، وألْقَتْ به في سَرَقُسْطَةَ العَصا . فقالا : الى أبي محمدٍ تُشير ، وأبي القاسم وأبي بَكر ؟ قلت : أجل . قالا : فأين بلغتَ فيهم ؟ قلت : أمَّا أبو مُحمدٍ فانتضى عليَّ لِسانه عندَ المستَعين[7] ، وساعدته

---

١ فرقتنا شغر بغر : اي فرقتنا في كل وجه مثل شذر مذر .
٢ الظربان : دويبة كالهرة نتنة الريح .
٣ نفح : اخرج ريحه . ذلك : اي الظربان . الانعام : في يتيمة الدهر : النعام .
٤ الافن : النقص .
٥ الغبن : الغبن ، والغشاء والالباس .
٦ الصقب : القريب للمذكر والمؤنث ، والقرب .
٧ المستعين : الخليفة الاموي سليمان بن الحكم الذي انتقلت الخلافة في قرطبة بعد مقتله الى علي بن حمود الادريسي .

زرافةٌ[١] استهواها من الحاسدين ، وبلغني ذلك فأنشدته شعراً ، منه :

وبُلِّغتُ أقواماً تجيشُ صدورُهمْ
عليَّ ؛ وإني منهمُ فارغُ الصدرِ

أصاخوا الى قولي فأسمعتُ مُعجزاً ،
وغاصوا على سرّي فأعياهُمُ أمري

فقال فريقٌ : ليس ذا الشعرُ شعرَهُ ؛
وقال فريقٌ : أيمُنُ اللهِ ، ما ندري[٢]

أما علِمُوا أني الى العِلمِ طامحٌ ؛
وأني الذي سبقاً على عِرقِهِ يجري ؟

وما كلُّ مَنْ قادَ الجيادَ يَسُوسُها ؛
ولا كلُّ من أجرى يُقالُ له : مُجري

فمَنْ شاءَ فليَخبُرْ فإنيَ حاضرٌ ،
ولا شيءَ أجلى للشكوكِ من الخُبرِ

وأمّا أبو بكرٍ فأقصر ، واقتصر على قوله : له تابعةٌ

١ الزرافة : الجماعة من الناس ، او العشرة منهم .
٢ الايمن : جمع اليمين ، اي القسم ، وهذا مثل قولك : فقلت : يمين الله .

تُؤيِّدُه. وأمّا أبو القاسِمِ الإفليلي[1] فمكانُه من نفسي مَكين، وحُبُّه بفؤادي دخيل؛ على أنه حاملٌ عليَّ، ومنتسب إليَّ.

صاحب الافليلي

فصاحا: يا أنفَ النّاقةِ بنَ مَعْمَر، مِن سُكّانِ خَيْبر! فقام إليهما جِنّيٌّ أشمطُ رَبْعةٌ وارِمُ الأنف، يتظالَعُ[2] في مِشْيَته، كاسِراً لطَرْفِه، وزاوِياً لأنفِه، وهو يُنشِد:

قَومٌ هُمُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهُمُ،
ومَنْ يُسَوّي بأنفِ الناقةِ الذَّنَبا؟[3]

فقالا لي: هذا صاحبُ أبي القاسم، ما قولُكَ فيه يا أنفَ النّاقة؟ قال: فتىً لم أعرِفْ على مَنْ قرأ. فقلتُ لنفسي: العصا من العُصَيّة[4]! إن لم تُعرِبي عن ذاتِك، وتُظهِري

---

١ الافليلي: قال ابن حيان، وكان ابو القاسم المعروف بابن الافليلي، قد بذ اهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي، والضبط لغريب اللغة، وكان راكباً رأسه في الخطأ البين يجادل عليه، ولا يصرفه صارف عنه.

٢ يتظالع: يغمز في مشيته.

٣ هذا البيت للحطيئة في مدح بني انف الناقة.

٤ العصا: فرس لجذيمة بن الابرش. العصية امها، ومنه المثل: لا يلد العصا غير العصية، اي ان الفرع يشبه الاصل، كما يشبه الافليلي انف الناقة.

بعضَ أدواتِك ، وأنتَ بينَ فُرسانِ الكلامِ ، لم يَطِرْ لكِ بعدَها طائر ، وكنتِ غرَضاً لكلِّ حجرِ عابر .

وأخذتُ للكلامِ أُهْبتَه ، ولبستُ للبيانِ بِزَّتَه ، فقلتُ : وأنا أيضاً لا أعرف على مَن قرأت . قال : ألِمِثلي يُقال هذا ؟ فقلت : فكان ماذا ؟ قال : فطارِحْني كتابَ الخليل. قلتُ : هو عندي في زِنْبيل . قال : فناظِرني على كتابِ سِيبَوَيْه . فلتُ : خَرِيَت الهِرَّةُ عندي عليه ، وعلى شرح ابن دَرَسْتَوَيْه . فقال لي : دعْ عنكَ ، أنا أبو البيان . قلت : لاهَ اللهُ[1] ! إنما أنتَ كمُغَنٍّ وَسَط ، لا يُحسِنُ فيُطرِب ، ولا يُسيءُ فيُلهِي[2]. قال : لقد علَّمَنيه المؤدِّبون . قلت : ليس هو من شأنِهم ، إنما هو من تعليم اللهِ تعالى حيثُ قال : « الرَّحمَنُ عَلَّمَ القرآنَ خَلَقَ الانسانَ عَلَّمَهُ البيان . » ليسَ من شِعرٍ يُفَسَّر ، ولا أرضٍ تُكَسَّر . هيهات ، حتى يكونَ المِسْكُ من أنفاسِك ، والعَنْبرُ من أنْقاسِك[3]؛ وحتى يكون مَساقُكَ عَذباً ، وكلامُك رَطْباً ، ونَفَسُك مِنْ

---

١ لاه : تستر وعلا وارتفع . وجوز سيبويه اشتقاق اسم الجلالة منه ، ولاه الله بمعنى تعالى الله .

٢ ألهى : ترك الشيء عجزاً .

٣ الانقاس : جمع النقس ، وهو المداد .

نَفْسِك ، وقَلِيبُكَ[١] من قلبِك؛ وحتى تتناولَ الوضيعَ فترفعَه ؛ والرفيعَ فتضعَه ، والقبيحَ فتحسِّنَه !

قال : أسمِعْني مِثالاً. قلت : حتى تَصِفَ بُرغوثاً فتقول :

صفة برغوث

أسودُ زَنجيٌّ ، وأهليٌّ وحشيٌّ ؛ ليس بِوانٍ ولا زُمَيْلٍ[٢] ، وكأنّه جُزءٌ لا يتجزّأ من ليل ؛ أو شُونيزةٌ[٣] ، أوثقتْها[٤] غريزة ؛ أو نقطةُ مِداد ، أو سُوَيْداءُ قلبِ قُراد[٥]؛ شُربه عَبٌّ ، ومَشْيه وَثْب ؛ يكْمُنُ نهارَه ، ويَسْري ليلَه ؛ يدارك بطَعْنٍ مؤلم ، ويَستَحِلُّ دمَ كلِّ كافرٍ ومُسلِم[٦]؛ مُساوِرٌ[٧] للأساوِرة[٨] ، يَجُرُّ ذيلَه على الجبابرة ؛ يتكفّر[٩] بأرفعِ الثياب ، ويهتِكُ سِترَ كلِّ حِجاب ، ولا يحفِلُ ببَوّاب ؛

---

١ القليب : البئر .

٢ الزميل : الجبان الضعيف .

٣ الشونيزة : الحبة السوداء. في الاصل : وشونيزة ، والتصحيح عن يتيمة الدهر .

٤ اوثقتها : احكمتها .

٥ القراد : حلمة الثدي ، ودويبة تتعلق بالبعير ونحوه كالقمل في الانسان .

٦ يدارك : في الاصل يدرك ، والتصحيح عن يتيمة الدهر . كافر : ناقصة في الاصل ، والزيادة عن يتيمة الدهر .

٧ مساور : مواثب .

٨ الاساورة : الفرسان الثابتون على ظهر خيولهم ، والذين يجيدون الرمي بالسهام.

٩ يتكفر : يتستر .

يرِدُ مَناهِلَ العَيْش العَذبة ، ويصِلُ الى الأحراج[1] الرَّطْبة ، لا يَمنَعُ منه أمير ، ولا يَنفعُ فيه غَيرةُ غَيور ، وهو أحقر كلِّ حقير ؛ شرُّه مَبثوث ، وعَهدُه منكوث ، وكذلك كلُّ بُرغوث ، كفى بهذا نَقصاً للانسان ، ودلالةً[2] على قُدرةِ الرَّحمَن .

صفة ثعلب

وحتى تصِف ثعلباً فتقول : أدهى من عمرو[3] ، وأفتكُ من قاتِلِ حُذَيفةَ بن بَدْر[4] ؛ كثيرُ الوقائع في المسلِمين ، مُغرًى بإراقةِ دماءِ المؤذّنين[5] ؛ إذا رأى الفُرصة انتهزَها ، وإذا طلَبتْه الكُماةُ أعجزَها ؛ وهو مع ذلك بُقراط[6] في إدامِه[7] ، وجالَينُوس[8]

---

١ الاحراج : جمع الحرج بالتحريك ، وهو المكان الضيق الكثير الشجر ويكنى به عن الحرمة ، ونرجح ان في الجمع تصحيفاً ، فهو بالحاء كما اورده الثعالي في يتيمة الدهر .

٢ ودلالة : في الاصل : ودالا ، والتصحيح عن يتيمة الدهر .

٣ عمرو : اي ابن العاص .

٤ حذيفة بن بدر : سيد بني فزارة ، قتل في حرب داحس والغبراء .

٥ المؤذنين : جمع المؤذن ، وهو هنا الديك لانه يؤذن في الصباح ، كأنه يسبح لله .

٦ بقراط : اعظم طبيب يوناني في القديم .

٧ الادام : ما يؤتدم به من الطعام ، ويعرف بالدامة عند العامة .

٨ جالينوس : طبيب يوناني قديم اشتهر بالتشريح .

في اعتِـدال طَعامِهِ ، غداؤه حَمَامٌ أو دَجاج ، وعَشاؤه تَدرُج[1] أو دُرَّاج[2] .

صاحب بديع الزمان

وكان فيما يقابلُني من ناديهم فتىً قد رَماني بطَرْفه ، واتّكأ لي على كفّه ، فقال : تَحَبَّلُ على الكلام لطيفٌ ، وأبيك! فقلت : وكيفَ ذلك ؟ قال : أوَما علِمتَ أنَّ الواصفَ إذا وَصَف شيئاً لم يَتقدَّم الى صفتِه ، ولا سُلِّط الكلامُ على نعتِه ، اكتفى بقليلِ الإحسان ، واجتزى[3] بيَسيرِ البَيان ؟ لأنه لم يتقدَّمْ وصفٌ يُقرَنُ بوصفِه ، ولا جرى مَساقٌ يُضافُ الى مساقِه . وهذه نُكتةٌ بغداذيَّة ، أنّى لكَ بها يا فتى المغرِب ؟

فقلتُ لزُهير : مَنْ هذا ؟ قال : زُبْدةُ الحِقَب ، صاحب بديع الزمان . فقلتُ : يا زُبْدةَ الحِقَب ، اقترِحْ لي . قال :

---

١ التدرج : طائر جميل المنظر جداً ، يغرد في البساتين باصوات طيبة ، وموطنه بارض خراسان وفارس وغيرهما ، وهو شبيه بالدراج الا انه افضل منه لحماً .

٢ الدراج : طائر جميل المنظر ملون الريش ، زعموا ان لحمه يزيد في الدماغ والفطنة .

٣ اجتزى : اكتفى ، لغة في اجتزأ .

صِفْ جاريةً . فوصَفتُها . قال : أحسنتَ ما شئتَ أن تُحسِن ! قلتُ : أسمِعْني وصفَكَ للماء[1] ، قال : ذلك من العُقْم[2] . قلت : بحَياتي هاتِه ، قال : أزرقُ كعينِ السِّنَّور ، صافٍ كقَضيبِ البِلَّور ؛ انتُخِبَ[3] من الفُرات[4] واستُعمِل ، بعد البَيات[5] ، فجاء كلسان الشَّمعة ، في صفاء الدمعة .

فقلتُ : انظُرْه ، يا سَيِّدي ، كأنَّه عصيرُ صباح ، أو ذَوبُ قمرٍ لَيَاح[6] ؛ يَنصَبُّ من إنائه ، انصبابَ الكوكبِ من سَمائِه ؛ العَينُ[7] حانُوتُه ، والفمُ عِفْرِيتُه ، كأنَّه خيطٌ من غَزْلٍ فَلِق ، أو مِخصَرٌ يُضرَبُ به من وَرِق[8] ؛ يُوقَعُ عنكَ فتَردَى[9] ، ويُصدَعُ[10] به قلبُكَ فتَحيا .

---

١ وصف الماء لبديع الزمان في المقامة المضيرية .
٢ من العقم : اي لا يولد شبيه له .
٣ انتخب : في المقامة المضيرية : استقي .
٤ الفرات : الماء العذب ، او لعله اراد به دجلة ، لان قصة المضيرة وقعت في بغداد ، يقال : الفراتان ، اي الفرات ودجلة.
٥ البيات : اي ان يبيت الماء في اناء تحت السماء ليبرد، ويصفى .
٦ لياح : ابيض ناصع.
٧ العين : اي عين الماء .
٨ المخصر: رواية يتيمة الدهر : المخصرة ، وهي قضيب كان الامير يأخذه بيده ، يشير به ويصل به كلامه . الورق : الفضة .
٩ تردى : اي تهلك عطشاً .
١٠ يصدع : يشق .

فلما انتهيتُ في الصَّفةِ ، ضرَبَ زُبدةُ الحِقبِ الأرضَ برِجْله ، فانفرَجَتْ له عن مثل بَرَهُوت[1] ، وتدَهْدى[2] إليها ، واجتمعتْ عليه ، وغابت عَينُه ، وانقطع أثرُه . فاستضحكَ الأستاذان من فِعله ، واشتدَّ غيظُ أنفِ النّاقةِ عليَّ .

رجع الى انف الناقة

فقال : وقعتْ لكَ أوصافٌ في شِعْرِك تظُنُّ أني لا أستَطيعُها ؟ فقلتُ له : وحتى تَصِف عارضاً[3] فتقول :

ومُرتَجِزٍ ألقى بذي الأثْل كَلكَلاً ،
وحَطَّ بجَرْعاءِ الأبارقِ ما حطّا[4]

سَعى في قِيادِ الرِّيحِ يُسْنِحُ للصَّبا ،
فألقَتْ على غيرِ التِّلاعِ به مِرْطا[5]

---

١ برهوت : واد او بئر بحضرموت .

٢ تدهدى : تدحرج .

٣ العارض : السحاب المعترض في السماء .

٤ المرتجز : السحاب يتحرك بطيئاً لكثرة مائه ، ويتدارك صوت رعده . الاثل : شجر عظيم يشبه الطرفاء . الجرعاء : الارض ذات الحزونة تشاكل الرمل ، او الكثيب ، جانب منه رمل ، وجانب حجارة . الابارق : جمع الابرق ، وهو غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلفة .

٥ على غير التلاع : اي على غير الاماكن المرتفعة . والتلاع مسايل المياه من الجبال والمرتفعات . المرط : كساء من صوف او خز .

وما زالَ يُروي التُّربَ حتى كسا الرُّبى
دَرانِكَ، والغيطانَ من نسجهِ بُسطا[1]

وعَنَّتْ له ريحٌ تُساقِطُ قَطرَهُ،
كما نَثَرَتْ حسناءُ من جيدِها سِمْطا

ولم أرَ دُرّاً بَدَّدَتْه يدُ الصَّبا
سِواهُ، فباتَ النَّورُ يَلقُطُه لَقْطا

وبِتنا نُواعِي الليلَ لم نَطوِ بُردَهُ،
ولم يجرِ شَيْبُ الصُّبحِ في فَرْعِهِ وَخْطا

تَراهُ كَمَلْكِ الزَّنجِ في فَرطِ كِبرِهِ،
إذا رامَ مَشياً في تبَخْتُرِهِ أبْطا

مُطِلّاً على الآفاقِ والبَدْرُ تاجُهُ،
وقد عَلَّقَ الجَوزاءَ من أذْنِهِ قُرطا

وحتى تصِفَ ذئباً فتقول:

إذا اجتازَ عُلْوِيُّ الرِّياحِ بأفقِهِ،
أجَدَّ، لِعِرْفانِ الصَّبا، يتنفّسُ[2]

---

١ الدرانك: الطنافس، واحدها درنك بكسر فسكون فكسر، والمراد الزهر الذي نبت عن المطر. الغيطان: جمع الغوط، وهو المطمئن الواسع من الارض.
٢ اجد: اسرع.

تَذَكَّرَ رَوضاً من شَوِيٍّ وباقِرٍ ،
تَوَلَّتْهُ أحْراسٌ من الذُّعرِ تُحْرَسُ [1]

إذا انْتابَها مِنْ أذؤُبِ القَفْرِ طارِقٌ
حَثِيثٌ ، إذا ما استَشْعَرَ اللحظَ يَهمِسُ [2]

أزَلُّ كَسا جُثمانَهُ مُتَسَتِّراً
طَيالِسَ سُوداً للدُّجى وهو أطْلَسُ [3]

فَدَلَّ عَليْهِ لحْظُ خِبٍّ مُخادِعٍ ،
تَرَى نارَهُ مِنْ ماءِ عَيْنَيْهِ تُقْبَسُ [4]

فصاح فِتيانُ الجِنِّ عندَ هذا البيتِ الأخيرِ : زاهِ [5] ! وعلتْ أنفَ الناقةِ كآبَةٌ ، وظَهَرتْ عليه مَهابَةٌ ، واختَلط كلامُه ، وبدا منه ساعتئذٍ بَوادٍ في خطابه ، رَحِمهُ لها مَن حضَر ، وأشفَق عليه من أجْلِها مَن نظر .

---

١ الشوي : الشاء . الباقر : اسم جمع للبقر .
٢ استشعر : خاف . يهمس : يسير بالليل .
٣ الازل : القليل اللحم ، والسريع . الاطلس : الذئب الامعط في لونه غبرة الى سواد .
٤ الخب : المخادع الخبيث الغاش .
٥ زاه : حكاية صوت المرتفي والمتعجب ، لم نجد لها ذكراً في كتب اللغة ، وانما ذكر زه زه : حكاية قول المرتفي ، وزي زي : حكاية صوت الجن .

صاحب ابي اسحاق بن حمام

وشَمَّرَ لي فتىً، كان الى جانبه، عن ساعِدٍ، وقال لي: وهل يضُرُّ قريحتَك، أو يَنقُص مِن بَديهتِك لو تجافَيتَ لأنفِ النّاقة، وصبَرتَ له؟ فإنه على عِلاّتِه زِيرُ عِلم، وزِنبيلُ فَهْم، وكَنَفُ رِواية. فقلتُ لزهير: مَنْ هذا؟ فقال: هو أبو الآداب صاحب أبي إسحاق بن حُمامٍ جارِك.

فقلتُ: يا أبا الآداب، وزهرةَ رَيحانةِ الكُتّاب، رِفقاً على أخيك بغَرْبِ لِسانِك[1]، وهل كان يضُرُّ أنفَ النّاقة، أو ينقُص من علْمه، أو يفُلُّ شَفْرةَ فهمه، أن يصبِرَ لي على زَلّةٍ تمُرُّ به في شِعْرٍ أو خُطبة، فلا يهتِفُ بها بين تلاميذِه، ويجعلُها طَرْمَذةً[2] من طراميذِه؟ فقال: إنّ الشُّيُوخَ قد تَهفو أحلامُهم في النّدرة. فقلت: إنها المرّةُ بعدَ المرّة.

ثم قال لي الأستاذانِ عُتبةُ بن أرقم، وأبو هُبَيرةَ صاحبُ عبدِ الحميد: إنّا لنَخبِطُ منك ببَيداءِ حَيرة، وتُفتَقُ أسماعُنا منك بعِبرة، وما ندري أنقولُ: شاعرٌ أمْ خطيب؟

---

١ غرب اللسان: حدته.
٢ الطرمذة: الصلف والمفاخرة.

فقلتُ : الإنصافُ أولى ، والصَّدْعُ بالحقِّ أحجى ، ولا بُدَّ من قضاء . فقالا : اذهبْ فإنك شاعرٌ خطيب .

وانفَضَّ الجَمْع والأبصارُ إليَّ ناظِرة ، والأعناقُ نَحوي مائلة .

الفصل الثالث

نقاد الجن

مجلس أدب

وحضَرتُ أنا أيضاً وزهيرٌ مجلِساً من مجالسِ الجنّ ، فتذاكرْنا ما تعاوَرتْه الشُعراءُ من المعاني ، ومَن زاد فأحسَنَ الأخْذَ ، ومَنْ قصَّر . فأنشدَ قولَ الأفوهِ[1] بعضُ من حضَر :

وترى الطيرَ على آثارِنا
رأيَ عينٍ ، ثِقةً أن ستُمارُ[2]

وأنشد آخرُ قولَ النابغة :

إذا ما غزَوا بالجيشِ حلّقَ فوقهمْ
عَصائبُ طيرٍ تهتدي بعَصائبِ

---

١ الافوه : اي الافوه الاودي ، شاعر جاهلي .
٢ ستمار : اي ستعطى ميرتها من جثث القتلى .

تَراهُنَّ خَلْفَ القومِ خُزْراً عُيونُها
جُلوسَ الشيوخِ في ثِيابِ المرانِبِ[1]

جَوانِحَ ، قد أيْقَنَّ أنَّ قَبيلَه ،
إذا ما التَقى الجَيْشانِ ، أوَّلُ غالِبِ

وأنشدَ آخرُ قولَ أبي نُواس :

تتأيّى الطَّيرُ غدوتَهُ
ثِقَةً بالشِّبْعِ من جَزَرِه[2]

وأنشدَ آخرُ قولَ صَريع الغَواني[3] :

قد عوَّدَ الطَّيرَ عاداتٍ وثِقْنَ بها ،
فهُنَّ يَتْبَعْنَهُ في كلِّ مُرتَحَلِ

وأنشدَ آخرُ قولَ أبي تَمَّام :

وقد ظُلِّلَتْ عِقْبانُ أعلامِهِ ضُحًى
بِعِقْبانِ طَيرٍ في الدِّماءِ نَواهِلِ[4]

---

١ الخزر : جمع الأخزر، وهو الذي ينظر بمؤخر عينه. المرانب : ثياب سود او اكسية من جلود الارانب . يشبه النسور وسواها من الجوارح، وما عليها من الريش ، بشيوخ عليهم الفراء .
٢ تتأيى : تقصد وتتعمد . غدوته : اي الى الحرب . من جزره : اي مما يترك من لحوم القتلى فريسة لها .
٣ صريع الغواني : مسلم بن الوليد ، الشاعر العباسي .
٤ العقبان الاولى : الرايات .

أقامَتْ معَ الرَّاياتِ حتى كأنَّها
من الجيشِ ، إلاّ أنَّها لم تقاتلِ

فقال شَمَرْدَلُ السَّحابيّ : كُلُّهم قصَّر عن النابغة ؛ لأنه زاد في المعنى ودلَّ على أنَّ الطيرَ إنما أكلَتْ أعداءَ الممدوح ، وكلامُهم كلهم مشتَرَكٌ يحتَمِلُ أن يكونَ ضِدَّ ما نَواهُ الشاعر ، وإن كان أبو تَمَّامٍ قد زاد في المعنى . وإنَّما المحسنُ المتَخلِّصُ المتنبي حيثُ يقول :

لهُ عسْكَرَا خيلٍ وطيرٍ إذا رمى
بها[1] عَسْكَراً لم تَبْقَ إلاّ جماجِمُهُ

وكان بالحَضْرةِ فتىً حسَنُ البِزَّة، فاحتَدَّ لقولِ شَمَرْدَل. فقال : الأمرُ على ما ذكرتَ يا شَمَردل ، ولكنْ ما تَسألُ الطيرُ إذا شبِعَتْ أيُّ القَبيلينِ الغالب ؟ وأمّا الطَّيرُ الآخر فلا أدري لأيِّ معنىً عافتِ الطيرُ الجماجمَ دونَ عِظامِ السُّوقِ والأذرُع والفَقارات والعصاعِص ؟ ولكنَّ الذي خلَّص هذا المعنى كلَّه ، وزاد فيه ، وأحسَنَ التركيب ، ودَلَّ بلفظةٍ واحدةٍ على ما دلَّ عليه شعرُ النابغةِ وبيتُ المتنبي ، مِن أن القَتلى التي أكَلَتْها الطيرُ أعداءُ الممدوح ، فاتِكُ بنُ الصَّقْعَبِ في قوله :

---

١ بها : الضمير عائد الى الخيل والطير لا الى عسكرا .

وتَذْري سِباعُ الطيرِ أنْ كُماتَهُ ،
إذا لَقِيَتْ صِيدَ الكُماةِ ، سِباعُ[1]

لهُنَّ لُعابٌ في الهَواءِ وهِزَّةٌ ،
إذا جَدَّ بينَ الدَّارِعِينَ قِراعُ

تَطيرُ جِياعاً فوقَهُ وتَرُدُّها
ظُباهُ الى الأوكارِ وهْيَ شِباعُ

تَملّكَ بالإحسانِ رِبْقَةَ رِقّها ،
فهُنَّ رفيقٌ يُشترى ويُباعُ

وألْحَمَ مِن أفراخِها فَهْيَ طَوعُهُ ،
لدى كلِّ حربٍ ، والمُلوكُ تُطاعُ[2]

تُماصِعُ جَرحاها فيُجهِزُ نَقرُها
عليهِمْ ، وللطَّيرِ العِتاقِ مِصاعُ[3]

فاهتزَّ المجلِسُ لقوله ، وعلِموا صِدقَه . فقلتُ لزهير : منْ فاتِكُ بنُ الصَّقْعب ؟ قال : يعني نفسَه . قلت له : فهَلاَّ عرَّفْتني شأنَه منذ حين ؟ إني لأرى نزَعاتٍ كريمة . وقمتُ

---

١ الصيد : جمع الأصيد وهو الرافع الرأس كبراً .
٢ ألحم : اطعم اللحم . من افراخها : لبان الجنس .
٣ تماصع : تقاتل .

فجلستُ إليه جِلسةَ المعظِّم له . فاستدارَ نحوي ، مكبِراً لِمَكاني ، فقلت : جُد أرضَنا ، أعزَّكَ اللهُ ، بسَحابك ، وأمطِرْنا بعُيونِ آدابِك . قال : سَلْ عما شئت . قلتُ : أيُّ معنىً سبَقكَ الى الاحسان فيه غيرُك ، فوجدتَه حين رُمتَه صَعباً عليك إلاّ أنّك نفَذتَ فيه ؟ قال : معنى قولِ الكِنْديّ[1] :

سَمَوتُ إليها بَعدما نامَ أهلُها ،
سُمُوَّ حَبابِ الماءِ حالاً على حالِ

قلتُ : أعزَّكَ الله ، هو من العُقْمِ . ألا ترى عُمرَ بنَ أبي ربيعةَ ، وهو من أطبَعِ الناسِ ، حين رامَ الدُّنُوَّ منه والإلمامَ به ، كيف افتضَح في قوله :

ونفَّضتُ عني النَّومَ أقبلتُ مِشيَةَ الـ
حُبابِ ، ورُكْني خِيفَةَ القومِ أزوَرُ[2]

قال : صدقتَ ، إنّه أساءَ قِسْمَةَ البيتِ ، وأراد أن يُلْطِفَ التَوصُّل ، فجاء مُقبِلاً بركْن كرُكْنِه أزْور .

---

١ الكندي : اي امرؤ القيس .
٢ خيفة : في رواية : خشية . ورواية الديوان :

وخفض عني الصوت اقبلت خشية الـ حباب ، وشخصي خشية الحي أزور

فأعجبني ذلك منه[1] ، وما زلتُ مقدّماً لهذا المعنى رِجلاً ، ومؤخّراً عنه أخرى ، حتى مررْتُ بشيخٍ يُعلّمُ بُنَيّاً له صناعةَ الشّعر وهو يقولُ له : إذا اعتمدتَ معنىً قد سبقَك إليه غيرُكَ فأحْسِنْ تركيبَه ، وأرِقّ حاشيتَه فاضربْ عنه جملة . وإن لم يكنْ بدٌّ ففي غيرِ العَروض التي تقدّم إليها ذلكَ المُحْسِنُ ، لتَنشَطَ طبيعتُك ، وتقْوى مُنّتُك[2] .

فتذكرتُ قولَ الشاعر[3] وقد كنتُ أنسيتُه :

لَمّا تسامى النّجمُ في أُفقِه
ولاحت الجَوزاءُ والمِرزَمُ[4]

أقبلتُ والوَطءُ خفيفٌ كما
يَنسابُ من مَكمَنِه الأرقمُ[5]

فعلِمتُ أنه صدَق؛ وابن أبي ربيعة لو ركِب غيرَ عَروضِه لَخلَص . فقلتُ أنا في ذلك :

---

١ منه : اي من الكندي .

٢ المنة بالضم : الضعف ، والقوة ، من الاضداد .

٣ الشاعر: هو اسماعيل بن يسار النسائي شاعر اموي من موالي بني تيم بن مرة ، تيم قريش ، وكان منقطعاً الى آل الزبير ، ثم وفد على عبد الملك بن مروان ومدحه . وعاش عمراً طويلاً الى ان ادرك آخر سلطان بني امية .

٤ المرزم : نجم ، وهما مرزمان مع الشعريين . رواية الاغاني :
حتى اذا الصبح بدا ضوءه وغارت الجوزاء والمرزم

٥ اقبلت : رواية الاغاني : خرجت . خفيف : رواية الاغاني : خفي .

ولمّا تَمَلّأ مِنْ سُكره
فنامَ ، ونامت عُيونُ العَسَس[1]

دنَوتُ إليه ، على بُعْدِهِ ،
دُنُوَّ رفيقٍ درى ما التَمَسْ

أدِبُّ إليه دَبيبَ الكَرى ،
وأسْمُو إليه سُمُوَّ النَفَسْ

وبِتُّ به ليلَتي ناعِماً ،
الى أن تبَسَّمَ ثغْرُ الغلَسْ

أُقَبِّلُ منه بَياضَ الطُّلا ،
وأرشُفُ منه سَوادَ اللَّعَس[2]

فقمتُ وقبّلتُ على رأسِهِ ، وقلتُ : للهِ دَرُّ أبيك !

فقال لي فاتِكُ بنُ الصَّقْعَب : فهل جاذبتَ أنتَ أحداً من الفُحول ؟ قلتُ : نعم ، قولَ أبي الطَّيِّب :

---

١ تملأ : امتلأ .

٢ الطلا : الاعناق ، او اصولها ، واحدتها طلية او طلاة . اللعس : سواد مستحسن في الشفة .

أأخلعُ المجدَ عن كتفي وأطلبُه ،
وأتركُ الغيثَ في غِمْدِي وأنتجعُ ؟[١]

قال لي : بماذا ؟ قلتُ : بقولي :

ومن قُبَّةٍ لا يُدرِكُ الطَّرْفُ رأسَها ،
تَزِلُّ بها رِيحُ الصَّبا فتَحَدَّرُ

اذا زاحمَتْ منها المخارِمَ صوَّبَتْ
هُوِيّاً ، على بُعْدِ المدى ، وهيَ تَجأرُ[٢]

تَكَلَّفتُها ، والليلُ قد جاشَ بحرُهُ ،
وقدْ جعلَتْ أمْواجُهُ تَتَكسَّرُ ،

ومِنْ تحتِ حِضْني أبيَضٌ ذو سَفاسِقٍ ،
وفي الكَفِّ من عَسَّالَةِ الخَطِّ أسمَرُ[٣]

هُما صاحِباي مِن لَدُنْ كُنتُ يافِعاً ،
مُقيلانِ مِن جَدِّ الفَتى حِينَ يَعثُرُ[٤]

---

١ أأخلع : رواية الديوان : أأطرح . كنى بالمجد والغيث عن السيف لانهما يدركان به ، والمراد بالغيث الخصب وسعة العيش .
٢ المخارم : انوف الجبال ، والمراد هنا اعالي الخيمة . صوبت : ضد صعدت . تجأر : تصوت .
٣ السفاسق : طرائق السيف وشطبه .
٤ الجد : الحظ .

فذا جَدوَلٌ في الغِمْدِ تُسقى به المُنى ،
وذا غُصُنٌ في الكفّ يُجنى فيُثمِرُ

فقال : واللهِ لئن كان الغَيْثُ أبلغ ، فلقد زدتَ زيادة مليحة طريفة ، واخترعْتَ معانيَ لطيفة . هل غيرُ هذا ؟ فقلتُ : وقوله أيضاً :

وأظما فلا أُبدي الى الماءِ حاجةً
وللشّمْسِ فوقَ اليَعْمَلاتِ لُعابُ[1]

قال : بماذا ؟ قلتُ : بقولي :

ولم أنسَ بالنّاوُوس أيّامَنا الألى
بها أيْنُنا مَحْبُوبُها وحَبابُها[2]

وفِتْيَةَ ضَربٍ من زَناتَةَ ، مُمْطِرٍ
بِوَبْلِ المنايا طَعْنُها وضِرابُها

وقفنا على جَمْرٍ منَ الموتِ وقفةً ،
صِلِيُّ لَظاهُ دأبُ قومي ودأبُها

---

١ وأظما : رواية الديوان : وأصدى ، وهي اجود. اليعملات : النياق النجيبة. لعاب الشمس : ما يراه المسافر من أشعة الظهيرة كأنه خيوط تتدلى فوق رأسه، ويكون ذلك وقت اشتداد الحر .

٢ الناووس : القبر ، وهنا موضع بعينه . الاين : الاعياء . ولعلها آينا جمع آية ليستقيم وجه الكلام . حبابها : مبلغ جهدها ، وبكسر الحاء : الوداد .

إذا الشمسُ رامتْ فيه أكلَ لُحُومِنا،
جرى جَشَعاً فوقَ الجِيادِ لُعابُها

فصاحَ صيحةً مُنكَرةً من صِياحِ الجنّ كاد يُنخَبُ[1] لها فؤادي فَزَعاً ، والله ، منه !

وكان بنَجوةٍ منّا جِنّيٌّ كأنّه هضْبة لركانتِهِ وتقبُّضِهِ، يحدّق فيَّ دُونَهم، يَرميني بسهمَين نافذَين، وأنا ألوذُ بطَرفي عنه ، وأستعيذُ بالله منه ، لأنه مَلأَ عيني ونفسي. فقال لي لـمّا انتهيتُ ، وقد استخفّهُ الحسَد: على مَن أخذتَ الزّمير[2] ؟ قلتُ : وإنما أنا نفّاخٌ عندك منذُ اليوم ؟ قال : أجل ! أعطِنا كلاماً يَرعى تِلاعَ الفصاحَة ، ويستحِمُّ بماء العُذوبةِ والبَراعة ، شديدَ الأسْر جيّدَ النّظام ، وضَعْه على أيّ معنىً شئتَ . قلت : كأيّ كلام ؟ قال : ككلام أبي الطيّب :

نزَلْنا على الأكوارِ نَمشي كرامةً
لِمَنْ بان عنه ، أنْ نُلِمَّ به رَكْبا[3]

---

١ ينخب : ينزع .
٢ الزمير : النفخ في القصب .
٣ الاكوار : رحال الابل ٠ عنه : اي عن الربع . والمراد : نمشي الى الربع على الاقدام ، لا راكبين ، اكراماً للحبيب الغائب عنه .

نَذُمُّ السَّحابَ الغُرَّ في فِعْلِها بِهِ ،
ونُعْرِضُ عنها ، كلَّما طلَعَتْ ، عَتْبا[1]

وكقوله :

أرأيْتَ أكبَرَ هِمَّةً من ناقتي ،
حمَلَتْ يداً سُرُحاً وخُفّاً مُجْمَرا[2]

تَرَكَتْ دُخانَ الرِّمْثِ في أوطانِها ،
طَلَباً لقومٍ يُوقِدُونَ العَنْبَرا[3]

وتَكرَّمَتْ رُكَباتُها عن مَبرَكٍ
تقعانِ فيه ، وليسَ مِسْكاً أذفَرا[4]

فأتَتْكَ دامِيَةَ الأظَلِّ كأنَّما
حُذِيَتْ قوائِمُها العَقِيقَ الأحْمَرا[5]

---

١ في فعلها به : اي انها عفت اثاره .
٢ اكبر همة : رواية الديوان : ارأيت همة ناقتي في ناقة . السرح : السهلة السير. المجمر : الصلب ، وبكسر الميم : الخفيف السريع .
٣ الرمث : شجر من الغضى .
٤ الاذفر : الذكي الرائحة .
٥ الأظل : باطن الخف الذي يلي الارض . حذيت : ألبست حذاء .

وكقوله :

عَلى كلِّ طاوٍ تحتَ طاوٍ كأنّما
مِنَ الدّمِ يُسقى أو مِنَ اللّحمِ يُطعَمُ[1]

لها تحتَهمْ زِيُّ الفوارسِ فوقَها ،
فكلُّ حِصانٍ دارعٌ مُتلَثّمُ[2]

وما ذاكَ بُخلاً بالنفوسِ على القَنا ،
ولكِنَّ صَدْمَ الشّرِّ بالشّرِّ أحزَمُ

فأدَّني[3] واللهِ بما قرَعَ به سمعي ، وقلتُ له : أيُّ ماءٍ لو كان من جِمامِك[4] ، واستهلّت به عيونُ غمامِك ! ثم استقدَمتُ فأنشدته :

ولربَّ ليلٍ للهُمومِ تهدَّلَتْ ،
أستارُه فمحا الصُّوى بستورِهِ[5]

---

١ الطاوي : الضامر البطن من الجوع ، ويراد بالاول الفرس ، وبالثاني راكبه .

٢ لها تحتهم : في الديوان : لها في الوغى . زي الفوارس فوقها : اي على هذه الخيول التجافيف ، بمنزلة الدروع على فرسانها الذين فوقها .

٣ ادني : دهاني بالامر الفظيع .

٤ الجمام : جمع الجم ، وهو الماء او معظمه . والمراد : لو كان هذا الشعر من نظمك .

٥ الصوى : جمع الصوة ، وهي حجارة تكون علامة في الطريق يهتدى بها .

كالبحرِ يَضرِبُ وجهَهُ في وجْهِهِ،
صَعْبٌ على العُبّارِ وجهُ عُبورِهِ

طاوَلْتُهُ مِنْ عَزمَتي بمُضَبّرٍ،
أثبَتُّ هَمّي في قَرارةِ كُورِهِ[1]

وعليَّ للصّبرِ الجميلِ مُفاضَةٌ،
تَلقى الرَّدى، فتَكِلُّ دون صَبُورِهِ[2]

وبِراحتي من فِكرتي ذو ذُكرةٍ،
عُهِدَتْ تُذاكِرُني بطَبعِ ذَكيرِهِ[3]

فَرْداً، إذا بعَثَتْ دياجي جِنْحِهِ
هَولاً عليَّ، خَبَطْتُ في دَيجُورِهِ[4]

حتى بدا عبدُ العزيزِ لِناظِرَيْ
أمَلي، فمزّقْتُ الدُّجَى عن نُورِهِ[5]

---

١ المضبر : البعير المكتنز اللحم المجتمع العظام .
٢ المفاضة : الدرع الواسعة .
٣ الذكرة : حدة السيف . الذكير : أيبس الحديد واجوده .
٤ فرداً : حال من التاء بـ « طاولته » ، وتروى بالضم، خبر لمبتدأ محذوف .
٥ عبد العزيز : هو المؤتمن بن عبد الرحمن بن عامر .

وأنشدته :

اللهَ في أرضٍ غُذِيتَ هواءَها ،
وعِصابةٍ لم تَتَّهِمْ إشفاقَها[1]

نَكَزَتهُمُ أفعى الخُطُوبِ ،وعُوجِلُوا
بمُتَمَّلٍ منها ، فكُنْ دِرْياقَها[2]

وافتحْ مَغالِقَها بعَزمةِ فيصَلٍ ،
لو حاوَلَتْ سَوقَ الثُّرَيَّا ساقَها[3]

ولوَ انَّها منه ، إذا ما استَلَّها ،
تتَعَرَّضُ الجَوزاءُ ، حَلَّ نِطاقَها[4]

وأنشدتُه :

لا تَبكِيَنَّ مِنَ اللّيالي أنَّها
حَرَمَتْكَ نَغبَةَ شارِبٍ مِن مَشرَبِ[5]

---

١ اللهَ : اي راقب الله .
٢ نكزته الافعى : لسعته . المتمل : السم المنقع .
٣ ساقها : ضمير الرفع يعود الى فيصل .
٤ نطاق الجوزاء : ثلاثة كواكب مستعرضة في وسط الجوزاء ، تسميها العرب النظم ، وهي مثل في الانتظام والالتئام .
٥ النغبة : الجرعة .

فأقلُّ ما لكَ عندَها سيفُ الرَّدى ،
يُسْتَلُّ مِن شَعَرِ القَذالِ الأشيبِ

ورَحيلُ عَيشِكَ كلَّ رِحْلةِ ساعةٍ ،
وفَناءُ طِيبِكَ في الزَّمانِ الأطيبِ

فإذا بَكَيْتَ فبَكِّ عُمْرَكَ ، إنَّهُ
زَجِلُ الجَناحِ يَمُرُّ مَرَّ الكوكبِ[1]

وأنشدته :

ولم أرَ مِثْلي ما لهُ مِن مُعاصِرٍ ،
ولا كمَضائي ما لهُ مِن مُضافِرِ

ولو كانَ لي في الجوِّ كِسْرٌ أؤمُّه ،
رَكِبْتُ إليه ظَهرَ فَتْخاءَ كاسِرِ[2]

وهَمَّتْ بإجْهاشٍ عليَّ ، وقد رأتْ
مُصابيَ في آثارِ إحْدى الكبائرِ

فقلتُ لها : إن تَجْزَعي مِن مُخاطِرٍ ،
فإنَّكِ لن تَحْظَي بغيرِ المُخاطِرِ

---

١ زجل الجناح : اي سريعه وله صوت وجلبة .
٢ الكسر : جانب البيت ، والشقة السفلى من الخباء . الفتخاء : العقاب اللينة الجناح .

تشبّهتَ غمارَ الوَفْرِ مني ، وإنّها
لدى كلّ مُبْيَضّ العَنانيزِ وافِرُ[1]

له في بَياضِ اليومِ يقظةُ فاجرٍ ،
وتحتَ سوادِ الليلِ هجمةُ كافرِ

رُوَيْدَكِ ، حتى تنظُري عَمّ تَنجلي
غَيابةُ هذا العارضِ المتناثرِ

ودونَ اعتزامي هَضْبَةٌ كِسْرَويَّةٌ ،
من الحزمِ ، سَلمانِيَّةٌ في المَكاسرِ[2]

إذا نَحْنُ أسْنَدنا إليها ، تبلّجتْ
مواردُنا عن نيّراتِ المَصادِرِ

وأنتَ ، ابنَ حَزمٍ ، مُنعِشٌ من عِثارها
إذا ما شَرِقْنا بالجُدودِ العَواثِرِ[3]

---

١ العنانيز : كذا في الاصل ، ولا معنى له ، ويصح ان يكون العثانين ، كما رأى مصححو الذخيرة .

٢ هضبة كسروية : يريد بها صديقه الفقيه ابا محمد بن حزم . سلمانية : نسبة الى سلمان الفارسي الصحابي . المكاسر : جمع المكسر ، وهو المخبر والاصل .

٣ الجدود : الحظوظ .

وما جَرَّ أذيالَ الغِنى نَحْوَ بَيْتِـه
كأروَعَ مُعْرَوْرٍ ظُهورَ الجَرائِرِ[1]

إذا ما تَبَغَّى نَضرَةَ العيش كرها ،
لدى مَشْرَعٍ للموتِ ، لمحةَ ناظِرِ[2]

فسَلْ من التأويلِ فيها مُهَنَّداً
أخُو شافِعِيّاتٍ كريمُ العناصِرِ[3]

لِمُعْتَزِليِّ الرَّأيِ ، ناءٍ عن الهُدى ،
بَعِيدِ المرامي ، مُسْتَمِيتِ البصائرِ[4]

يُطالِبُ بالهِنْديِّ في كلِّ فتكةٍ
ظُهُورَ المذاكِي عن ظُهُورِ المنابرِ[5]

---

١ معرور : راكب . يقال اعروری فرسه : ركبه عرياناً . الجرائر : الجنايات .
٢ كرها : الضمير يعود الى الجرائر ، على تشبيها بالخيل . المشرع : المنهل .
٣ شافعيات : كان ابن حزم في اول امره يميل بـه النظر في الفقـه الى رأي ابي عبد الله بن ادريس الشافعي ، فناضل عن مذهبه وتعصب له ، حتى وسم به ونسب اليه ، ثم عدل عنه الى رأي الظاهريـة ، مذهب داود بن علي واتباعه، فنقحه وجادل عنه ، وانحرف عن غيره من المذاهب ، وكان في جـداله قاسياً حديد اللسان حتى استهدف الى فقهاء وقته فتمالأوا عـلى بغضه ، وشنعوا عليه ، فلفظة الجرائر تنطبق على مجادلاته وتأويلاته الاليمة .
٤ كان لابن حزم ردود عنيفة على المعتزلة في كتابه الفصل في الملل والاهواء والنحل .
٥ المذاكي : الخيول التي اتى عليها بعد قروحها سنة او سنتان .

وأنشدتُه :

وقالتِ النفسُ لـمَّا أنْ خلَوتُ بها ،
أشكو إليها الهوى خِلْواً منَ النّعَمِ :

حتّامَ أنتَ على الضّرّاءِ مُضْطجِعٌ ،
مُعَرِّسٌ في دِيارِ الظُّلْمِ والظُّلَمِ ؟[1]

وفي السُّرى لكَ ، لو أزمَعْتَ مُرتحلاً ،
بُرْءٌ منَ الشوقِ ، أو بُرْءٌ منَ العَدَمِ[2]

ثم استَمرَّتْ بفضْلِ القولِ تُنهِضُني ،
فقلتُ : إني لأستَحْيي بني الحكَمِ[3]

الملتحِفينَ رِداءَ الشمسِ مجدَهُمُ ،
والمُنْتَعِلينَ الثُّرَيّا أخمَصَ القَدَمِ

ألِمتُ بالحُبِّ ، حتى لو دَنا أجَلي ،
لَما وجَدْتُ لطَعْمِ الموتِ من ألَمِ[4]

---

١ المعرس : الذي ينزل في مكان آخر الليل للاستراحة .
٢ العدم : الفقر .
٣ بني الحكم : اي امراء بني امية .
٤ ألمت : في الاصل المت ، ونبه على ذلك مصححو الذخيرة .

وذادَني كَرَمي عمّن ولِهتُ بـه،
وَيلِي من الحُبِّ، أو ويلِي من الكرَم[1]

تَخَوّنَتني رِجالٌ طالما شَكَرَتْ
عَهْدي، وأثْنَتْ بما راعَيتُ من ذِمَمِ

لَئِنْ وَرَدْتُ سُهَيْلاً غِبَّ ثالِثةٍ،
لَتَقْرَعَنَّ عليَّ السِّنَّ مِنْ نَدَمِ[2]

هناكَ لا تَبْتَغي غيرَ السَّناءِ يدي،
ولا تَخِفُّ الى غيرِ العُلى قَدَمي

حتى تَرانيَ في أدنى مَواكبِهِمْ،
على النَّعامةِ شَلّالاً منَ النَّعَمِ[3]

رَيّانَ مِنْ زَفَراتِ الخيلِ أوردُها
أمواهَ نيطةَ تَهْوي فيه باللُّجُمِ[4]

---

١ ذادني : دفعني وردني .

٢ سهيل : نجم يماني ، والثريا من النجوم الشآمية ، فهما لا يلتقيان . وخطابه للامير الاموي الذي قال عنه انه انعل الثريا اخمص قدمه . ولعله اراد بسهيل احد امراء بني حمود الذين كانوا ، في ذاك العهد، ينازعون الامويين الخلافة. ثالثة : اي ليلة ثالثة .

٣ النعامة : اسم فرس . شلال : يقال : فلان شلال النعم ، اي يطردها ويسوقها امامه ، وتكون من غنائمه في الغزو . النعم : الابل .

٤ نيطة : كذا في الاصل، وهو كما يظهر اسم موضع ، او نهر، لم نتمكن من اثباته ، واليه ارجع ضمير المذكر في قوله تهوي فيه .

قُدّامَ أروعَ من قومٍ وَجدْتُهُمُ
أرعى لِحَقّ العُلى من سالفِ الأمَمِ

ففتَحَ عليّ عينَيْنِ كالماوِيّتَيْنِ[1] ثم قال لي : من القائل ؟

طلَعَ البَدْرُ علينـــا ،
وحسِبْنـاهُ لَـبيبـــا

والتَقَيْنـــا ، فرأيْنـا
هُ بَعِيـداً وقريبـــا

قلتُ : أبي . قال : فمن القائل ؟

فيا مَن إذا رامَ مَعنى كلامي ،
رأى نَفْسَهُ نُصْبَ تلكَ المعاني

شكَوتُ إليكَ صُروفَ الزّمانِ ،
فلمْ تَعْدُ أنْ كنتَ عونَ الزمانِ

وتَقْصُرُ عن هِمّتي قُدرتي ،
فيا لَيْتَني لِسوى مَنْ تَماني

ولا غَروَ للحُرّ ، عندَ المَضيـ
قِ ، أنْ يتَمنّى وَضيعَ الأماني

---

[1] الماوية : المرآة .

قلت : أخي . قال : فمن القائل ؟

صُدُودٌ، وإنْ كان الحبيبُ مُساعِفاً،
وبُعْـدٌ ، وإن كان المَزارُ قريبـا

وما فتِئَتْ تلك الدِّيارُ حبائباً
لنا ، قبـلَ أنْ نَلقى بهِنَّ حبيبا

ولو أسعَفَتْنـا بالمودَّةِ في الهَوى ،
لأدنَيْنَ إلفاً ، أو شَغَلْنَ رقيبـا

وما كان يَجفُو مُمْرِضي ، غيرَ أنّهُ
عَدَتْهُ العَوادي أنْ يكونَ طَبيبا[1]

قلت : عمّي . قال : فمن القائل ؟

أتَيْناكَ، لا عن حاجـةٍ عرَضَتْ لنا
إليكَ ، ولا قلبٍ إليـكَ مَشُوقِ

ولكِنّنا زُرْنا بفَضْلِ حُلُومِنـا
حِمـاراً ، تَلَقّى بِرَّنا بعُقُوقِ

قلت : جَدّي . قال : فمن القائل ؟

وَيلِي على أحْوَرَ تَيّـاهِ ،
أحْسَنَ ما يَلْهُو بـه اللاهِي

---

١ عدته : صرفته . العوادي : الشواغل .

أقبلَ في غَيدٍ حَكَينَ الظِّبا،
بيضٍ تَراقٍ، حُمْرٍ أفواهِ[1]

يأمُرُ فيهنَّ وينْهى ، ولا
يَعْصِينَـهُ من آمِرٍ ناهي

حتى إذا أمْكَنَني أمْرُهُ،
تَرَكْتُـهُ مِنْ خِيفَـةِ اللهِ

قلت : جَدُّ أبي . قال : فمن القائل ؟

وَيْحَ الكِتابةِ مِن شَيخٍ هَبَنَّقَةٍ ،
يَلقى العيُونَ برأسٍ مُخُّـهُ رارُ[2]

ومُنْتِنِ الرِّيحِ إنْ ناجَيْتَهُ أبـداً ،
كأنَّما مـاتَ في خَيْشُومِهِ فارُ .

قلتُ : أنا . قال : والذي نفسُ فِرعونَ بيـدِهِ ، لا عَرَضْتُ لك أبـداً ، إني أراكَ عَريقاً في الكلام . ثم فـلَّ واضمحلَّ ، حتى إنَّ الخُنفَسَاء لَتَدوسُهُ ، فلا يشغَلُ رِجْليها .

---

١ التراقي : جمع الترقوة وهي مقدم الحلق في اعلى الصدر حيثما يترقى فيه النفس .
٢ هبنقة : رجل يضرب به المثل في الحمق، اجراه مجرى الصفة . الرار : الذائب من المخ .

فعجبتُ منه ، وقلت لزهير : مَن هذا الجِنّيّ ؟ فقال لي : استَعِذْ باللهِ منه ، إنه ضرَط في عَينِ رجُلٍ فبَدَرَتْ من قَفاه ، هذا فِرعونُ بنُ الجَون . فقلتُ : أعوذُ باللهِ العظيمِ ، مِنَ النارِ ومن الشيطان الرَّجيم ! فتبسَّم زُهَيرٌ وقال لي : هو تابعةُ رجل كبير منكم ، ففهمتها عنه .

•

الفصل الرابع

حيوان الجن

لغة الحمير

ومشَيْتُ يوماً أنا وزُهير بأرض الجنّ أيضاً نتقرّى الفوائد ونعتمِدُ أنديَةَ أهلِ الآدابِ منهم ، إذ أشرَفنا على قَرارةٍ غَنّاء[1] ، تفترُّ عن بِركةِ ماء ، وفيها عانةٌ[2] من حُمُر الجِنّ وبغالِهم، قد أصابَها أولَق[3] فهيَ تَصْطَكُّ بالحوافرِ ، وتنفخُ

١ القرارة : المطمئن من الارض ، والقاع المستدير . غناء : كثيرة العشب ، او تمر فيها الريح غير صافية الصوت لكثافة عشبها .

٢ العانة : القطيع من حمر الوحش .

٣ الاولق : الجنون او شبهه .

من المناخرِ ، وقد اشتدَّ ضُراطُها ، وعلا شَحيجُها[1] ونُهاقُها .
فلما بصُرَت بنا أجْفلتْ إلينا وهي تقول : جاءكم علي رجلَيه !

فارتَعتُ لذلك ، فتبسَّم زُهيرٌ وقد عرَفَ القصْد ، وقال لي : تَهَيَّأ للحُكْم . فلمَّا لحقتْ بنا بدأتْني بالتفدية ، وحيَّتني بالتكنية . فقلت : ما الخَطبُ ، حُمِيَ حِماكِ أيَّتُها العانة ، وأخصَبَ مَرْعاكِ ؟ قالتْ : شِعْرانِ لحِمارٍ وبَغلٍ من عُشّاقنا اختلَفْنا فيهما ، وقد رضِيناكَ حَكَماً . قلتُ : حتى أسمَع . فتقدَّمتْ إليَّ بغلةٌ شَهْباء ، عليها جُلُّها وبُرقُعها ، لم تدخُل فيما دخلَتْ فيه العانةُ من سوءِ العَجَلةِ وسُخْفِ الحركة ، فقالت : أحَدُ الشعرينِ لبغْلٍ من بغالِنا وهُو :

على كلِّ صَبٍّ مِن هَواهُ دَليلُ :
سَقامٌ على حَرِّ الجَوى ، ونُحُولُ

وما زالَ هذا الحُبُّ داءً مُبرِّحاً ،
إذا ما اعتَرى بَغْلاً فليسَ يَزُولُ

بنَفْسي التي أمَّا مَلاحِظُ طَرْفِها
فسِحْرٌ ، وأمَّا خَدُّها فأسيلُ

---

١ الشحيج : صوت البغل .

تَعِبْتُ بما حُمِّلْتُ من ثِقْلِ حُبِّها،
وإني لَبَغْلٌ للثِّقالِ حَمُولُ

وما نِلْتُ منها نائِلاً غيرَ أنَّني
إذا هيَ بالَتْ بُلْتُ حيثُ تَبُولُ

والشعر الآخرُ لِدُكَيْنِ الحمار :

دُهِيتُ بهذا الحُبِّ منذُ هَوِيتُ،
وراثَتْ إراداتي فلستُ أرِيثُ[1]

كَلِفْتُ بإلفي منذُ عِشرينَ حِجَّةً،
يَجُولُ هواها في الحَشا ويَعِيثُ

وما ليَ مِنْ بَرْحِ الصَّبابةِ مَخْلَصٌ،
ولا ليَ مِنْ فَيضِ السَّقامِ مُغيثُ

وغَيَّر منها قلبَها لي نَميمَةٌ،
نَماها أحَمُّ الخُصْيَتَيْنِ خَبِيثُ[2]

وما نِلْتُ منها نائِلاً، غيرَ أنَّني
إذا هي راثَتْ رُثْتُ حيثُ تَرُوثُ[3]

---

١ راثت : ابطأت .

٢ نماها : اي نسبها اليه . الاحم : الاسود .

٣ راثت : احدثت .

فضحِكَ زهيرٌ، وتماسكْتُ، وقلتُ للمنشِدة: ما هَويتُ؟ قالتْ: هو هَويتُ، بلغةِ الحميرِ. فقلتُ: والله، إن للرَّوثِ رائحةً كريهةً، وقد كان أنفُ الناقةِ[1] أجدرَ أن يحكُمَ في الشِّعر! فقالت: فهمتُ عنك. وأشارتْ الى العانة أنْ دُكَيناً مغلوب؛ ثم انصرَفت[2] قانعة راضية.

وقالت لي البَغْلة: أما تعرِفني أبا عامر؟ قلتُ: لو كانت ثمَّ علامة! فأماطتْ لِثامَها، فإذا هي بغلةُ أبي عيسى، والخالُ على خدِّها، فتباكَيْنا طويلاً، وأخذنا في ذِكْر أيامنا، فقالت: ما أبقتِ الأيامُ منك؟ قلت: ما تَرَيْنَ. قالت: شَبَّ عمرٌو عن الطَّوق[3]! فما فعل الأحبَّةُ بعدي، أهم على العهد؟ قلتُ: شَبَّ الغِلمان، وشاخ الفِتْيان، وتنكَّرتِ الخُلاَّن؛ ومِن إخوانكِ من بَلَغَ الإمارة، وانتهى الى الوزارة. فتنفَّستِ الصُّعَداء، وقالت: سقاهم اللهُ سَبَلَ العهد[4]، وإن حالوا عن العَهْد، ونسُوا أيّامَ الوُدّ. بحرمةِ الأدَب، إلاَّ ما أقرأتَهم مني السلام؛ قلت: كما تأمُرِينَ وأكثر.

---

١ انف الناقة: الجني الذي مر ذكره.

٢ انصرفت: الضمير يعود الى العانة.

٣ شب عمرو عن الطوق: مثل يضرب لمن يلبس شيئاً دون قدره وعمره، او لمن كبر عن شيء كان يتزيا به.

٤ السبل: المطر. العهد: اول مطر الوسمي، ومطر بعد مطر يدرك آخره بلل اوله.

الاوزة الاديبة

وكانت في البركة بقربنا إوزّةٌ بيضاء شهلاء ، في مثل جثمانِ النّعامة ، كأنما ذُرّ عليها الكافور ، أو لبست غلالةً من دِمَقْسِ الحرير ، لم أرَ أخفَّ من رأسها حركة ، ولا أحسَنَ للماءِ في ظهرها صبّاً ، تثني سالفتها[1] ، وتكسِرُ حدقتها ، وتلولِبُ قمَحْدُوتها[2] ، فترى الحُسْنَ مستعاراً منها ، والشّكلَ مأخوذاً عنها ، فصاحت بالبَغلة : لقد حكمتم بالهوى ، ورضيتم من حاكِمكم بغيرِ الرّضا .

فقلتُ لزهير : ما شأنها ؟ قال : هي تابعةُ شيخٍ من مشْيَختكم ، تُسمّى العاقلة ، وتُكنى أمَّ خفيف ، وهي ذات حظٍّ من الأدب ، فاستعِدَّ لها . فقلتُ : أيتها الإوزّةُ الجميلة ، العريضةُ الطّويلة ، أيَحْسُنُ بجمالِ حدَقتيكِ ، واعتِدالِ مَنكِبيكِ ، واستقامةِ جناحَيكِ ، وطولِ جيدِكِ ، وصغَرِ رأسِكِ ، مقابلةُ الضّيفِ بمثل هذا الكلام ، وتلقّي الطارىء الغريبِ بشبهِ هذا المقال ؟ وأنا الذي همتُ بالإوزّ

---

١ السالفة : ناحية مقدم العنق من لدن معاق القرط الى الترقوة .

٢ القمحدوة : مؤخر القذال ، والهنة الناشزة فوق القفا ، واعلى القذال خلف الاذنين .

صَبابةً ، واحتَمَلتُ في الكَلَفِ بها عَضَّ كلِّ مَقالة ؛ وأنا الذي استَرجَعتُها الى الوطنِ المألوف ، وحبَّبتُها الى كلِّ غِطْريف[1] ، فاتَّخذَتْها السادةُ بأرضِنا واستَهلَكَ عليها الظُّرَفاءُ منّا ، ورُضِيَتْ بدلاً من العَصافيرِ ، ومُتَكلِّماتِ الزرازيرِ ، ونُسِيَتْ لذَّةُ الحَمام ، ونِقارُ الدُّيُوك ، ونِطاحُ الكِباش .

فدخَلَها العُجْبُ من كلامي ، ثم توقَّعتْ وقد اعترتْها خِفَّةٌ شديدةٌ في مائها ، فمرَّةً سابحة ، ومرةً طائرة ، تنغمسُ هنا وتخرُجُ هناك ، قد نَقَبَّبَ جَناحاها ، وانتصبت ذُناباها ، وهي تَطَرَّبُ تطريبَ السُّرور ؛ وهذا الفعل معروفٌ من الإوَزِّ عند الفرح والمرح . ثم سكنتْ وأقامتْ عُنُقَها ، وعرَّضتْ صدرَها ، وعمِلتْ بمِجْدافَيْها[2] ، واستقبلَتنا جائيَةً كصَدرِ المركَب ، فقالت : أيُّها الغارُّ المغرور ، كيف تحكُم في الفروعِ وأنت لا تُحكِمُ الأصول ؟ ما الذي تُحْسِنُ ؟ قلتُ : ارتجالَ شِعر ، واقتضابَ خُطبة ، على حُكْم المقتَرَح والنُّصْبة[3] . قالت : ليسَ عن هذا أسألُك . قلت : ولا بغيرِ هذا أجاوبُك . قالت : حُكمُ الجوابِ أن يقَعَ على

---

١ الغطريف : السيد الشريف .

٢ المجداف : الجناح ، ومنه مجداف السفينة .

٣ النصبة : السارية المنصوبة علامة للطريق ، والمراد هنا ما يشار به من رأي لا يعدل عنه ، يقال : نصبت له رأياً .

أصل السؤال ، وأنا إنما أردتُ بذلك إحسانَ النّحوِ والغريبِ اللذَيْن هما أصلُ الكلام ، ومادّةُ البيـان . قلت : لا جوابَ عندي غيرَ ما سمعت . قالت : أُقسِم أنّ هذا منك غيرُ داخلٍ في باب الجـدَل. قلت : وبالجدَلِ تطلُبِيننا وقد عقَدنا سَلْمَه ، وكُفينا حَرْبَه ، وإنّ ما رَمَيْتُكِ به منه لأنفذُ سِهامِـه ، وأحَدُّ حِرابِـه ، وهو من تعاليم الله ، عزّ وجلّ ، عندنا في الجَـدَل في مُحكَم تنزيله . قالت : أقسم أنّ الله ما علّمـك الجدَل في كتابه. قلت : محمول عنك[1] أمّ خفيف ، لا يَلزَمُ الاوَزّ حِفظُ أدبِ القرآن ، قال الله ، عزّ وجلّ ، في مُحكَم كتابه حاكياً عن نبيّه إبراهيمَ ، عليـه السلام : «ربيَ الذي يُحْيي ويُميتُ ، قال : أنا أُحْيي وأُميت.» فكان لهذا الكلام من الكافر جواب ، وعلى وجوبه مقال ؛ ولكنّ النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لمّا لاحتْ له الواضحةُ القاطعةُ ، رماهُ بهـا ، وأضرب عن الكلام الأول ، قال : «فإنّ اللهَ يَأتي بالشمسِ من المَشرِقِ ، فأتِ بها من المغربِ ؛ فبُهِتَ الذي كَفَر.» وأنا لا أحسِنُ غـير ارتجالِ شعر ، واقتضابِ خُطبـة ، على حُكم المُقترَح والنُّصبة .

فاهتزّت من جانبيها ، وحال الماءُ[2] من عينَيها ، وهمّت

---

١ محمول عنك : من حمل عنه : أي حلم .

٢ حال الماء : اي سقط .

بالطيران . ثم اعتراها ما يعتري الإوَزّ من الألفة وحسن الرّجعة ، فقدّمتْ عُنقَها ورأسَها إلينا تمشي نحوَنا رويداً ، وتنطِق نطقاً مُتدارَكاً خفيّاً ، وهو فعلُ الإوزّ إذا أَنِستْ واستراحتْ وتدلّلت ؛ على أني أحبُّ الإوزّ وأستظرِفُ حركاتِها وما يعرِضُ من سخافاتِها .

ثم تكلّمتُ بها مُبَسْبِساً[1] ، ولها مؤنِساً ، حتى خالطتْنا وقد عَقَدْنا سَلْمها وكُفِينا حَربَها ، فقلت : يا أمَّ خَفيف ، بالذي جعلَ غِذاءكِ ماء ، وحَشى رأسَكِ هواء ، ألا أيُّما أفضل : الأدبُ أم العقل ؟ قالت : بل العقل . قلتُ : فهل تعرفين في الخلائق أحمقَ من إوزّة ، ودَعيني من مَثَلهم في الحُبارى[2] ؟ قالت : لا . قلت : فتطَلَّبي عقلَ التجرِبة ، إذ لا سبيلَ لكِ الى عقلِ الطبيعة ، فإذا أحرزتِ منه نَصيباً ، وبُؤتِ[3] منه بحظّ ، فحينئذٍ ناظِري في الأدب . فانصرفتْ وانصرفنا .

●

---

١ مبسبساً : داعياً بقوله : بس بس .
٢ الحبارى : طائر معروف يضرب به المثل في الحمق والغباوة كما يضرب بالاوز .
٣ باء : رجع .

رسالة

التوابع والزوابع

الكتاب الأول

ابن شهيد الأندلسي

حياته ، ادبه ، رسالة التوابع والزوابع

الكتاب الثاني

رسالة التوابع والزوابع

المدخل

توابع الشعراء

توابع الكتاب

نقاد الجن

حيوان الجن

المراجع

اعتمدنا دواوين الشعراء ، وكتاب الأغاني ، وديوان الحماسة ، والعقد الفريد ، ومعجم البلدان ، والقاموس ، ومعجم دوزي ، في تصحيح الأشعار ، وتحقيق اسماء الأعلام والأماكن ، وشرح الاصطلاحات الأندلسية او الحضرية ، الواردة في رسالة التوابع والزوابع . ورجعنا في الكلام على ابن شهيد ونقد آثاره الى هذه الكتب :

الكتب العربية

ابن بسام : الذخيرة

الفتح بن خاقان : مطمح الأنفس

الثعالبي : يتيمة الدهر

المقري : نفح الطيب

ابن خلدون : كتاب العبر

ابن خلكان : وفيات الاعيان

ابن عذاري : البيان المغرب

بطرس البستاني : ادباء العرب ، ج ٣

بطرس البستاني : معارك العرب في الشرق والغرب

الكتب الافرنسية

— Dozy, Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne, Leyde — E. J. Brill 1881.
— Cl. Huart, Histoire des Arabes, Geuthner, Paris.
— Louis Bertrand, Histoire d'Espagne, Arthème Fayard, Paris.
— C. Brockelmann, Histoire des Peuples et des Etats Islamiques (Traduction de M. Tazourout) Payot, Paris.

•